محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الجزء الثاني

تأليـــف:

فضيلة الشيخ / محمد الصادق إبراهيم عرجون

عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقًا

تقديم:

أ.د/ إبراهيم صلاح الهدهد

نائب رئيس جامعة الأزهر

الشيخ محمد الصادق إبراهيم عرجون وجهاده في طلب العلم(*)

الحمد لله وكفى وأصلي وأسلم على عباده الذين اصطفى، أما بعد فإن عرض سيرة أهل العلم من أعظم الدوافع على طلب العلم ومجاهدة النفس فيه، فهو أنفس ما في الحياة، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه: «ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم».

مولده وطلبه للعلم:

ولد الشيخ محمد الصادق إبراهيم عرجون سنة ١٩٠٣م الموافق ١٣٢١هـ، في بلدة إدفو بمحافظة أسوان بصعيد مصر، والشيخ ينتهي نسبه إلى قبيلة مرة، وعرفت بـ(بالمراري)، و(العراجين)... استقرت أسرة الشيخ صادق في بلدة إدفو بمحافظة أسوان، وكانت بيوتهم ومنازلهم متسعة، ومبنية بالطوب اللبن، وكان والده إبراهيم يتعلق قلبه بالمساجد وخطبائها، وكل آماله أن ينشأ ابنه محمد مثل هؤلاء الخطباء، فعهد به إلى شيخ الكُتّاب؛ ليحفّظه القرآن الكريم؛ فكانت هذه هي الخطوة الأولى في تعليمه، غير أن الأب وافته المنية

(*) استقينا هذه الترجمة من الرسائل العلمية التي كتبت عن الشيخ، ومن معجم البابطين، وموقع ذاكرة الأزهر، وصفحة (الفيسبوك) التي أعدها محبو الشيخ على الشبكة العنكبوتية.

وابنه ما يزال في أول الطريق، وتطلع بعينيه فيمن حوله، فوجد في بيته اثنين من بني عمومته، كانا من خريجي الأزهر، هما الشيخ موسى والشيخ حسن الأمير، والأخير زوج أخته، وكان واعظا يحاضر في العديد من معسكرات الجيش المصري؛ فاتخذهما في حياته قدوة علمية له، في حين تعهدته والدته بالرعاية، فألحقته بالأزهر الشريف لينهل من علم شيوخه، ويحقق أمنية والده.

التحق الشيخ الصادق عرجون بالجامع الأزهر عام ١٣٣٥هـ الموافق ١٩١٦م، ونال الشهادة الأولية سنة ١٣٤٠هـ الموافق ١٩٢١م، ثم الثانوية سنة ١٣٤٤هـ الموافق ١٩٢٥م، ثم العالمية سنة ١٣٤٨هـ الموافق١٩٢٩م، وكان ترتيبه الثالث في شهادة التخصص في الأدب والبلاغة في سنة ١٣٥٢هـ الموافق ١٩٣٣م، وكان موضوعها (النقد الأدبي عند العرب). وأبرز أساتذته الذين تأثر بهم الشيخ محمد الخضر حسين والشيخ إبراهيم الجبالي، رحمهما الله -

المناصب التي تقلدها:

عين رحمه الله مدرسا بكلية اللغة العربية، عام ١٩٥٠م، ثم كلية أصول الدين، ثم عين شيخًا لمعهد دسوق الديني، واهتم هناك بنشر مراكز تحفيظ القرآن، ثم انتقل شيخًا لمعهد أسيوط الديني في عامي ١٩٥٣م و١٩٥٤م، ثم شيخًا لعلماء الإسكندرية وعميدًا لمعهدها لمدة عشر سنوات. وقد

اشترك- وهو شـيخ لمعهد الإسكندرية- في مهرجان الغزالي الذي أقيم في دمشـق ببحث عنوانه (مفتاح شخصية الغزالي: هل شـك حجة الإسلام؟) ثم تقلد فضيلته عددًا من المناصب الإدارية بالمعاهد الأزهرية، فعمـل مديرًا للتعليـم الابتدائي ثـم وكيلا للتعليم الأزهري. وقد تميز نشـاطه في تلك الفترة بالعمل على نشـر مـدارس تحفيظ القرآن الكريـم، ثم انتقل فضيلتـه بعد ذلك إلى جامعة الأزهر عميدًا لكلية أصول الدين إلـى عام ١٩٦٩م، واهتم فيها بدعم النشـاط العلمي وأبحاث الدراسات العليا وكان هذا آخر منصب تولاه في مصر.

ثم تولى عدة مناصب في العالم الإسـلامي؛ فتولى منصب مديـر معهـد الدراسـات العليا للدعـوة الإسـلامية بجامعة أم درمان الإسـلامية بالسـودان، ثم عمل أسـتاذًا بالجامعات في الكويت والسـعودية وليبيـا وأندونيسـيا، وكان آخر منصب تولاه هو أسـتاذ الدراسـات العليا للحديث بجامعـة أم القرى بمكـة المكرمة، ثم تقاعد من هذا المنصب، وتفرغ بالقاهرة لإتمام كتبه حتى وافته المنية رحمه الله.

دراسات عن الشيخ:

كتبت عن الشيخ رسالتان جامعيتان:

الأولـى للباحـث: سـعد العزبـاوي بكليـة أصـول الديـن جامعة الأزهر تحت عنـوان (محمد الصادق عرجون وجهوده في الدعوة إلى الله).

والثانية للباحث : غانم السعيد محمد غانم بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر تحت عنوان (النتاج الأدبي للشيخ محمد صادق عرجون، موضوعاته وخصائصه).

وكتب عنه بكر محمود محمد عطية العشري دراسة بعنوان: (الشيخ الصادق عرجون مؤرخًا).

من أقوال أهل العلم فيه:

١.تقريظ الإمام الكوثري لكتاب (عثمان بن عفان المفترى عليه):

كتاب بديع بهذا العنوان ألفه العالم البارع البحاثة السيد صادق عرجون من أساتذة كلية اللغة العربية، بعد أن درس حياة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، دراسة شاملة لأحواله في عهد حضرة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، وفي عهدي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وفي عهد خلافته نفسه، وبعد أن بحث عن ملابسات الأحداث المهمة المتصلة بعهد خلافته رضي الله عنه، حتى حلل أنباءه وعلل أحداث عهده، ونسق الشئون وتبين لديه وجوه ارتباط الفتن الحادثة في عهده بأسبابها وعللها، ثم دون صفوة بحوثه في هذا الكتاب الممتع في قوالب متخيرة تتسابق معانيها إلى نفوس القراء، بقلم لا يعرف التحيز لغير الحق، وبراعة تعودت الجري في سبيل الإصابة لكبد الحقيقة، بصدق لا يشوبه عرج ولا عوج، فجاء كتابه بحيث يروي الغلة ويشفي العلة حتى أظهر أن

شـخصية سـيدنا عثمان رضي الله عنه عظيمة يحوطها القُدس من كل جانب، إلا أنه كان مظلومًا حيًا وميتًا.

أما كونه مظلومًا في حياته فللين جانبه [الكلام عن عثمان رضي الله عنه]، بحيث يطمع فيه الفاتنون وقد كشـرت الفتن عن أنيابها بعد ست سنوات من توليه الخلافة. وأما كونه مظلوما بعد وفاته فلتغلب الأهواء على نفوس المتلبسين بتلك الفتن الدامية التي أوقفت الإسلام عن تقدمه السريع من كل ناحية، فتفرقوا أحزابًا خوارج وشـيعًا، لا يتورعون عن الكلام فيه بما لا يوافق الحقيقة إلا من صان الله جانبه.

وميزة مؤلفنا في بحوثه المثابرة مهما كلفه ذلك، وإفراغ نتيجة بحوثه في ألفاظ جذابة المعاني، ومناصرة المظلومين في التاريخ بالكشف عن نقولات أصحاب الأغراض السيئة ضد الشخصيات العظيمة من رجال صدر الإسلام خاصة. وهذا ما يجعلنا نحمل بين جوانحنا إجلالا لهذا العالم الجليل مؤلف (عثمان بن عفان) السيد صادق عرجون، وإن لم يسبق لنا الاجتماع بفضيلته وفقه الله سبحانه لتأليف كثير من أمثال هذا الكتاب الميمون.

٢.الدكتور محمد رجب البيومي العميد الأسبق لكلية اللغة العربية بالمنصورة ورئيس تحرير مجلة الأزهر الأسبق:

كان الأستاذ يُدَرِّس لنا التفسير بكلية اللغة العربية، وكنت أحادثه كثيرًا في نتاجه العلمي؛ فعرفت منه سِرّ اتجاهه إلى تحليل

الشخصيات اللامعة في صدر الإسلام؛ إذ حدثني أنه قرأ كتاب قادة الفكر للدكتور: طه حسين؛ فوجده يُرْجع التقدم الفكري إلى الثقافة اليونانية، وتجاهل ما عداها من الثقافات السابقة، وفي طليعتها الثقافة المصرية التي تأثر غيرها بها، وقد نوقش الدكتور مناقشة حادة، ولكنه لم يبال بالرد على معارضيه.

وفي مكان آخر يؤكد الدكتور البيومي، الذي تتلمذ على الشيخ وأخذ عنه، أن ثمة علاقة قوية بين أسلوب الشيخ وشخصيته!! فيقول:

لا تَصْدُق عبارة (الأسلوب هو الرجل نفسه) كما تصدق على العالم الأديب المؤرخ الأستاذ محمد صادق إبراهيم عرجون؛ ففي أسلوبه ما في شخصيته من فحولة وشجاعة وقوة!! وأنت إذا كنت تعرفه وألممت بصفاته ثم قرأت أثرًا من آثاره، وجدْتَ الرجل مصوَّرا فيما كتب؛ لقد كان الأستاذ ذا حمية مخلصة وغيرة ملتهبة تلمسها في حديثه، كما تراها في بريق عينيه، وتوهُّج ملامحه؛ فإذا قرأت له موضوعًا جدليًا مما خاض فيه مع من يخالفهم الرأي تمثلت لك هذه الملامح فيما تقرأ فتجزم بأن (الأسلوب هو الرجل نفسه).

ويضيف: أفاد الطالب المجد من أساتذته وتشبع بأساليبهم وتعددت نواحي الثقافة العلمية لديه؛ وتمثل منبعها الرائق في كتب التراث ومحاضرات الأساتذة بالأزهر، ثم في مشكلات العصر الاجتماعية والسياسية التي دفعت الطالب الناهض إلى

المشـاركة بالـرأي فيمـا يقـرأ ويســمع .... كل ذلـك قد فرض عليه اتجاهًا قياديًا في التفكير كاتبًا، وفي الســلوك إنســانًا، وهو اتجـاه المســلم المتحمــس الغيور الـذي يسـتطيب المجالدة في حومـة الرأي، ويلج أدق المعضلات الشـائكة غير هياب ... هذه السمات الفكرية قد اتضحت على نحوٍ ما في مؤلفاته الكثيرة .

مؤلفاته :

١ – هـذا الكتاب الذي تنشـره مجلة الأزهـر على حلقات عنوانه : محمد رسول الله منهج ورسالة، بحث وتحقيق، وهو أعظـم كتبه وأوسـعها وأنفعها، بلغت صفحاته نحو (٢٦٦٠ صفحة) في أربعة مجلدات أنجزه في عشر سنوات، ونال عنه جائزة رابطة العالم الإسلامي .

٢ـ الموسوعة في سماحة الإسلام في مجلدين .

٣ـ القرآن الكريم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين .

٤ـ الأدب بين القديم والحديث .

٥ـ النقد الأدبي عند العرب .

٦ـ عثمان بن عفان المفترى عليه .

٧ـ خالد بن الوليد .

٨ـ حجة الإسلام الغزالي : المفكر الثائر .

٩ـ التصوف في الإسلام : منابعه وأطواره .

١٠ـ حرية الفكر في الإسلام .

١١ـ الدين منبع الإصلاح الاجتماعي .

١٢ـ من رياض القرآن.
١٣ـ موقف الإسلام من المخترعات الحديثة.
١٤ـ رد مزاعم رسالة في قراءات القرآن.
١٥ـ سنن الله في المجتمع من خلال القرآن.
١٦ـ الأمة الإسلامية كما يريدها القرآن.
١٧ـ نحو منهج في تفسير القرآن.

الشيخ شاعرًا:

كان الشيخ رحمه الله عضوًا في جماعة (أبوللو) الأدبية. وقد حصل على جوائز أدبية في صدر حياته الأدبية، وله إنتاج شعري، منه قصيدة مطولة بعنوان (الطيف الخالد)، نشرتها مجلة (أبوللو) في عدد يونيو ١٩٣٣م.

والقليل المتاح من شعره يدل على نزعة تأملية فلسفية، وتطلع مثالي، ونزوع صوفي، يكثر من طرح الأسئلة عن الكون والمصير ونزعات البشر، عبارته صافية، وحواراته في سياق القصيدة محكومة بتساؤلاته. ومع امتداد القصيدة تنوعت القوافي، واستخدم البحر تامًا ومجزوءًا وهو ما كان منتشرًا بين شعراء (أبوللو)، كما كانت له كتابات في الصحف والمجلات والإذاعة منذ ثلاثينيات القرن الماضي.

ولم يضع رحمه الله قلمه إلا عندما فاضت روحه إلى بارئها في غرة المحرم ١٤٠١هـ الموافق ٩ نوفمبر ١٩٨٠هـ.

أ.د / إبراهيم صلاح الهدهد

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة أصحاب الفيل

طبيعة المسالمة في قريش يمثلها زعيمها عبد المطلب:

أما الحادث الثاني في حياة عبد المطلب جد رسول الله ﷺ الذي وَعدنا بالحديث عنه لأهميته في تاريخه، فهو حادث أصحاب الفيل، فقد كان عبد المطلب هو صاحب كلمة قريش وزعيم مكة وسيدها الناطق عنها، وله مع أبرهة قائد جيش الفيل موقف غريب في ظاهره، بيد أنه كان حكمة وكياسة في حقيقته، وهذا الموقف يصور طبيعة المصالحة والتأله في عبد المطلب خاصة وقريش عامة، ومن هنا كانت خصيصة قريش وامتيازها على العرب وزعامتها فيهم، ومن هنا كانت خصيصة عبد المطلب في قريش وشرفه وسيادته عليهم فليست قريش من مساعر الحروب في العرب، ولم يُعَنْوِن لها التاريخ في أيام حروب الجاهلية إلا ما أُلجِئتْ إليه إلجاءً، ولم يكن ذلك عن ضعف فيها أو جبن عن لقاء أقرانها، ولكن طبيعة حياتها في حرم الله وجوار بيته هي التي صنعتها على هذه الصورة المسالمة، وكذلك لم يكن سيدها عبد المطلب ابن هاشم من رجالات الحروب وأبطال الغزو والقتال، بل كان رجل سلم وسلام؛ لأنه شيخ الحرم الذي يأمن فيه الخائف

فلا يهاج، وينتصف فيه من الظالم للمظلوم، وقد غلبت هذه الطبيعة على قريش وعلى شيخها عبد المطلب في موقفهم من أصحاب الفيل.

سياسة الحكمة في موقف عبد المطلب من جيش الفيل صانت قريشًا:

فهذا جيش جاء لغزو مكة وهدم بيتها المحرم، وقريش سادنة البيت وصاحبة مجده، وعبد المطلب شريف قريش وسيدها، فما كان من قريش ولا كان من عبد المطلب نهوض للحرب ووقوف في وجه هذا الجيش المهاجم ليصدوه عن بلدهم وبيتهم، كما وقف في وجهه قبائل من العرب التي مر بها في طريقه فعرفت وجهته فحاربته وهزمها، ومضى في طريقه إلى هدفه حتى دنا من مكة وتسامعت قريش وعبد المطلب بأخباره وعدده وعدته، فقالوا: لا طاقة لنا بحربه، وأشار عبد المطلب على قومه بالخروج من مكة وإخلائها صيانة لهم من عبث الجيش ومعرته، فلَجئُوا إلى شعف الجبال تاركين البيت لرب البيت يحميه ويمنعه؛ لأن التعرض لحرب هذا الجيش إنما هو انتحار على أبشع صورة يسوق إليها التهور المغرور، وكان عبد المطلب في رأيه هذا أكيس من رجل يدفع بقومه إلى الانتحار في غير طائل، فسالم وخلص بقريش فلم يصبها ما أصاب غيرها من القبائل المتعرضة لهذا الجيش الكثيف، وقدر عبد المطلب في نفسه أن الله ربَّ البيت سيحمي هذا

البيـت، وراح فـي قومه قبـل أن يخرجوا عن مكـة يدعون الله ويستنصرونه لبيته وحرمه.

تعـزز مكانة قريش في العرب بموقفها وراء زعيمها عبد المطلب:

فلمـا جـاء الله بنصره وأنزل نقمته على أعـداء حرمه وبيته عرفـت العـرب لقريش هـذه المكانة فقالـوا: إنهـم أهل الله وجيران بيته [وهو - تعالى -] يحامي عنهم، وازدادت مكانة عبـد المطلب رفعـة عند قومه لأنـه أنقذهم وصـان حرمتهم، وذاع صيتـه وصيت قريش في أرجـاء الجزيرة، وتداول الناس الأحاديـث عن عبـد المطلب وعـن أبنائه وقومه فـي قبائلهم وبيوتاتهـم ومحافلهـم وأسـواقهم، ومـا صنع الله لهـم، وقد اتصـل ذلك بحديث ميـلاد حفيد عبد المطلب (محمد ﷺ) ابـن ولده الحبيب عبـد الله الذبيح، وهـذا الاتصال ربط ذلك الحادث بسـيرة وتاريخ رسـول الله ﷺ على صورة تجلت في الامتنـان عليه وعلى قومه وأمته بما صنع الله له ولبيته العتيق، فصانـه وصـان أهل جواره عـن عبث الغـزاة وفجورهـم، ورد عليهم كيدهم في نحورهم، وأهلكهم هلاك اسـتئصال بما لم تجرِ به عادة الناس، فكان إرهاصًا لمقدم محمد رسول الله ﷺ وبعثته، وأنزل الله في ذلك سورة من سور القرآن الكريم سجل فيها هذا الحادث خاصة أروع تسـجيل في أوجز عبارة وأوضح أسلوب.

فقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾

(الفيل: ١-٥)

هذا الحدث كان إرهاصًا لمقدم محمد ﷺ:

وفي خطاب رسول الله ﷺ في مفتتح السورة بهذا الأسلوب التقريري التعجيبي، وانصباب الاستفهام على الرؤية - وهو ﷺ لم يكن من شهود الحادث عند وقوعه - دليل على أن هذا الحادث كان معروفًا متعالمًا مشهورًا بشهوده وآثاره لدى الخاصة والعامة حتى كان الحديث عنه ممن شهدوه إلى من لم يشهدوه حديث رؤية وعلم يقين يستوي مع المشاهدة والعيان، وفي انصباب الاستفهام على رؤية كيفية فعل الله بهؤلاء الطغاة دون انصبابه على ذات الفعل أو أثره فقيل:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾

ولم يقل: ألم تر ما فعل أو آثار ما فعل ربك، إشارة إلى تهويل الحادث وإيذان بوقوعه على كيفيةٍ وحالة هي فوق مستوى ما عهده الناس وجرت به عادة فيما بينهم من طرائق وقوع الأحداث.

وإضافة الفعل المعجِّب عن طريقة وقوعه إلى الله بعنوان

الربوبيـــة المختصة بمحمد ﷺ على مـا تقتضيه الإضافة إلى ضميـــر الخطاب له خاصة، دون ضمير غيره أو دون مشـــاركة معه رمزٌ إلى مزيد اختصاص هذا الحادث به وأنه كان من أجله، ومن أجل رسـالته، ومن هنا اتفقت كلمة أهل الإِسـلامِ ـ إلا من زاغ عـن الجادة ـ علـى أن الله قدم هذا الحادث تشـريفًا لخاتم أنبيائه وتعظيمًا لشأنه، قال الإمام فخر الدين الرازي: ولا شك أن هـذه الواقعة كانت دالة على قدرة الصانع وعلمه وحكمته، وكانـت دالة على شـرف محمـد ﷺ؛ وذلـك لأن مذهبنا أنه يجـوز تقديم المعجـزات على زمـان البعثة تأسيسًـا لنبوتهم وإرهاصًا لها.

وإبهام ما فعل الله بهم في صدر الكلام ثم توضيحه وتفصيله في صورة الاستفهام التعجيبي، والتعبير عن مقاصدهم الفاجرة بالكيـد الـدال على خفي التدبير وسـيئ المكـر، وامتنان الله بجعـل ذلـك هباءً مضيَّعًا لا يحظى منه صاحبـه بطائل - دليلٌ على شـدة قهر الله لهم وبطشـه بهـم، وعلى فظاعـة ما كانوا يسـتهدفون من هدم بيت الله وتخريبـه والعبث بحرمه وهتك حرمـات قُطَّانه وأهلـه، وفـي العناية بالتنصيـص على طريقة إهلاكهم وذكر ما أهلكوا به بعنوان متعارف في صورة لم تجرِ بهـا عـادة، ولا تعارفها النـاس فيما بينهم فـي كافة الحروب والغـزوات وتجمعـات الجيـوش - آيـةٌ علـى أن هـذه النهاية السـريعة الخاطفة والصورة البشعة الهائلة التي انتهى بها هذا

الحادث ليست من سنن الحياة المألوفة المكررة، ولكنها من سنن الوجود المدخرة، لأحيانها ومناسباتها، فهو معجزة لنبوة محمد ﷺ مقدَّمة عليها إرهاصًا لها وتأنيسًا بوقوعها، أعلم الله بها نبيه ممتنًّا عليه عند تشريفه بدواعيها.

موقف الإيمان وموقف العقل والعقلانيين من هذا الحادث:

وإلا فمتى كان في معهود الناس ومتعارف الأحداث أن طيرًا - بهذا العنوان الذي له صورة خاصة لدى من يسمعه - تَفِدُ جماعات في إثر جماعات، تحمل معها حجارة من طين يابس متحجر حتى كأنه طبخ بالنار، ثم تعمد هذه الجماعات من الطير إلى جماعات من الناس مخصوصة لا تتعداهم إلى غيرهم، فترميهم بما حملت من الحجارة فتصيب مقاتِلَهم إلا قليلًا ممن نجا سقيمًا ليكون عنوانًا على هول ما أنزل الله بهم من نقمة في هذا الحادث الجسيم!! هذا هو الذي قال الله تعالى وقصَّه علينا في صراحة لا تحتمل لبسًا ولا تأويلًا، وقد آمن بهذا المؤمنون، وعلموا أن سنن الكون أجلُّ من أن يحيط بها علمنا، وأخطر من أن تكون حبيسة في دائرة عقولنا المحدودة، وأن منها سننًا عامة معهودة متعارفة، وأن منها سننًا خاصة تقع عندما تتهيأ لها دواعيها، وخوارق العادات التي يجريها الله على أيدي أنبيائه ورسله من سنن الكون الخاصة التي جعلها الله عنوانًا على صدقهم وتكريمهم.

أما الذين وقفت بهم عقولهم عند مألوف الناس واحتكموا في الحوادث إلى العادات الجارية المتكررة، وأرادوا أن يُخضِعوا سنن الله في الكون وإرادته في خلقه وسلطان قدرته عليهم إلى ما جرت به العادة وتعارفه الناس، فقد فَظِع بهم أن يؤمنوا بهذا كما آمن المؤمنون بجلال الله وواسع قدرته ومحكم إرادته وعظيم سلطانه، وأبَوا إلا تحريف كَلِم الله عن مواضعه وتأويل آياته الصريحة الصادقة، والتمسوا في الأمور العادية ملجأ للتأويل.

وفي قصة الفيل تشبثوا بالأوبئة العامة والأمراض الجائحة ليجدوا لهم مخرجًا في تأويلها حتى لا تكون من سنن الله الخاصة في الكون والمعجزات الباهرة لمحمد ﷺ فتحدثوا عن الحصبة والجدري وراحوا يفسرون بهما هذا الحادث.

رأي الإمام الرازي:

قال الإِمام فخر الدين الرازي في تفسيره: «واعلم أن قصة الفيل واقعة على الملحدين جدًّا؛ لأنهم ذكروا في الزلازل والرياح والصواعق وسائر الأشياء التي عذب الله تعالى بها الأمم أعذارًا ضعيفة، أما هذه الواقعة فلا تجري فيها تلك الأعذار؛ لأنه ليس في شيء من الطبائع والحيل أن تُقبل طير معها حجارة فتقصد قومًا دون قوم فتقتلهم، ولا يمكن أن يقال إنه كسائر الأحاديث الضعيفة؛ لأنه لم يكن بين عام الفيل ومبعث الرسول إلا نيف وأربعون سنة، ويوم تلا الرسول هذه السورة كان قد بقي

بمكة جمع شاهدوا تلك الواقعة، ولو كان النقل ضعيفًا لشافهوه بالتكذيب، فلما لم يكن عَلِمْنا أنه لا سبيل للطعن فيه.

وليس بلازم - على المحقَّق من مذاهب العلماء - أن تكون - أي المعجزات - مقرونة بالتحدي، بل من المعجزات ما يجب أن يكون مقرونًا بالتحدي، وذلك ما جعله الله برهانًا على صدق مدعي الرسالة كالقرآن الكريم(١) بالنسبة لمحمد ﷺ، والعصا بالنسبة لموسى، وإحياء الموتى بالنسبة لعيسى - عليهما السلام - ومنها ما يكون لمحض التكريم والتشريف سابقًا للنبوة في زمانها، أو واقعًا في زمانها كجميع الآيات الحسية المادية التي أوتيها محمد ﷺ ولم يتحدَّ بها، والعمدة فيه اتفاقه مع القسم الأول في خرق العادة ومخالفة مجرى سنن الحياة المتكررة المعهودة كتظليل الغمامة، وشق الصدر، وتسبيح الحصى، وتكثير القليل من الطعام أو الماء مما وقع لنبينا محمد ﷺ قبل نبوته أو بعدها، ولم يتحد به ولم يتخذه برهانًا على صدقه، وإنما جعله الله له تكريمًا لمقامه وتشريفًا لقدره.

---

(١) وإنما انفرد القرآن الكريم من بين جميع المعجزات المحمدية بجعله برهان الصدق، وقرنه بالتحدي لمناسبته لعموم الرسالة؛ لأن التحدي به عم ويعم جميع من أرسل إليهم إلى يوم القيامة، أما سائر المعجزات فإنها لم يشهدها إلا قوم بأعيانهم فليس فيها عموم التحدي فلم تجعل برهانًا عامًّا على صدق الدعوى وإن كانت برهانًا لمن شهدها، ولم يعرف من طريق صحيح أن النبي ﷺ تعلق بهذه المعجزات المادية الصادقة الوقوع برهانًا على صدق رسالته.

أقرب روايات القصة وأشبهها بالواقع:

وقد أغرق رواة السيرة وقصاص التاريخ في رواية القصة فلوَّنوها بألوان شتى، وأدخلوا عليها من الغرائب ما أوحى به الخيال الفضفاض ونحن بعد أن شرحنا ما تضمنته سورة الفيل من سور القرآن الكريم، وهو أصدق وأحكم مصدر لما يقصه ويرويه من الدلائل والإشارات على مغزى القصة في صورة ومرماها وطريقة أدائها للحادث في مقدمته ونتائجه ودقيق عنايتها بنهايته التي هي محط العظة والاعتبار- نرى أن نلم إلمامة موجزة بأشبه روايات القصة وأقربها إلى الحق الواقعي في كتب السيرة والتاريخ.

الاختلاف في سبب هذا الحادث:

وقد اختلفت الروايات في سبب هذا الحادث ومبعثه الذي هاجه وحرك إليه، فذهب جمهور الرواة إلى رواية محمد بن إسحاق المشهورة التي تزعم أن أبرهة الأشرم أمير الحبشة على اليمن رأى إقبال العرب على الحج إلى مكة لتعظيم الكعبة بيت جدهم إبراهيم وأبيهم إسماعيل، فأراد أن يتقرب إلى سيده النجاشي- وكان نصرانيًّا- بصرف العرب عن مكة وكعبتها، فابتنى كنيسة صرف همَّه في زخرفتها وتزيينها وكتب إلى النجاشي: إني بنيت لك كنيسة لم يُبنَ مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنتهٍ حتى أصرف إليها حاج العرب، فلما تسامع العرب بما صنع أبرهة اشتد عليهم، فذهب بعض

المتحمسين من متدينيهم واحتال حتى دخل تلك الكنيسة فعبث بها وقذَّرها، فغضب أبرهة وأقسم ليهدمن الكعبة ويطأنَّ مكة.

وذهب هشام الكلبي ومقاتل بن سليمان إلى أن سبب حادث الفيل أن فتية من قريش خرجوا تجارًا إلى أرض الحبشة، فنزلوا على ساحل البحر إلى جوار بيعة للنصارى يسمونها الهيكل، فأوقدوا نارًا لطعامهم وتركوها وارتحلوا فهبَّت ريح عاصف على النار فأضرمت البيعة نارًا فاحترقت فأتى الصريخ إلى النجاشي فأخبره فاستشاط غضبًا فأتاه أبرهة بن الصباح وحجر بن شرحبيل وأبو يكسوم الكِنديون وضمنوا له إحراق الكعبة وسبي مكة.

هاتان الروايتان هما أمثل الروايات في سبب القصة، وكلتاهما محتملة الوقوع؛ فالرواية الأولى تردُّ السبب إلى دوافع سياسية واقتصادية، فالحبشة قوم متغلبون على هذا القطر العربي- اليمن- يحكمونه وهم أجانب عنه، لا يطمئنون إلى أهله ويتوجسون خيفة من اجتماعهم بإخوانهم عرب الشمال في أرض الحجاز، وهذه طبيعة كل متغلب أجنبي، فلما رأوا رحلات أهل اليمن في مواسم الحج خشوا مغبة ذلك على اقتصادهم وخافوا عاقبته على وجودهم، فأرادوا أن يصرفوا الناس عن هذه الرحلات فبنوا كنيستهم ليحج الناس إليها ويتحول اقتصاد الجزيرة وتجاراتها في مواسمها إلى

بلادهم، وبذلك يستطيعون مراقبة من تحدثه نفسه بالخروج على سياستهم المتغلبة تطلعًا إلى الحرية والاستقلال، إلى جانب ما قصد إليه أبرهة من استرضاء النجاشي والزلفى إليه.

والرواية الثانية ترد السبب إلى العصبية الدينية وتربطه بأرض الحبشة نفسها، وكانت الصلات التجارية بين العرب والحبشة معروفة، ونزول التجار بجوار الأديرة والْبِيَع والهياكل مشهور، وعادة القوافل إذا نزلت منزلًا أن توقد النيران لتطعم وتستدفئ، فإذا رحلوا لم يحملوا معهم جذوات الجمر في دفين الرماد، فإذا هبت الريح اتقدت وازدادت اشتعالًا وسرت مع الريح، فإذا صادفت مُسْعِرًا تسعَّرَت واستشرت فأهلكت ودمرت، وفي الهياكل والبيع أدهان القناديل ومجتمع الهشيم.

فإذا لحقت النيران بأوله لم تلبث حتى تأتي على آخره، ولعل هذا كان أثرًا من آثار أولئك الفتية التجار من أبناء قريش الذين نزلوا بجوار بيعة الحبشة فاحترقت، وظن الحبشة بالعرب الظنون وأرادوا الثأر لبيعتهم، وعرفوا أن الكعبة هي هيكل العرب ومتعبدهم المقدس فأرادوا تخريبها، فكتب النجاشي إلى عامله على اليمن أو سار العامل بمن معه من الحبشان إلى مكة بجيش جرَّار يقدمه الفيلة وطليعتها أعظمها، فلما علم به العرب أعظموه وفظعوا به ورأوا قتاله وصده واجبًا عليهم، فتصدى له بعض من كان في طريقه من

قبائل العرب، وكان أول من خرج لجهاده ومقاتلته رجل من أشراف اليمن وأذوائهم يقال له ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من العرب، فقاتلوه فهزمهم أبرهة، وأخذ ذو نفر أسيرًا، ثم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي على رأس قومه ومن تبعه من غيرهم، فقاتلوه فهزمهم أيضًا وأخذ نفيل أسيرًا فكان دليل الحبشة في طريقهم، حتى إذا مروا بالطائف ألقت إليهم ثقيف بطاعتها وأرسلت معهم رجلًا يقال له أبو رغال يدلهم على الكعبة، فأنزلهم مكانًا قرب مكة يقال له المغمس وفيه مات أبو رغال فكان سُبَّة على ثقيف، وذهبت طليعة الحبشة فاستاقت إلى أبرهة أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم، وأصابوا فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم- وهو يومئذ كبير قريش وسيدها.

موقف عبد المطلب من هذا الحادث:

ثم بعث أبرهة إلى أهل مكة رجلًا يقال له حناطة الحميري فقال لهم: إن الملك يقول: إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا إليَّ بحرب فلا حاجة لي بدمائكم، فلما دخل رسول أبرهة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له: عبد المطلب بن هاشم، فجاءه فقال له ما أمره به، فقال عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك منه طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته، وإن يخلِّ بينه وبينه فوالله

مـا عندنا دفع عنه، فقال له رسـول أبرهة: فانطلِـقْ إليه، فإنه قـد أمرنـي أن آتيه بك، فانطلق معه عبـد المطلب فدخل على ذي نفـر في مجلسـه- وكان لـه صديقًا- قبـل أن يدخل على أبرهـة، فقال له: يـا ذا نفر هل عندك من غنـاء فيما نزل بنا؟ فقـال له ذو نفـر: وما غناء رجل أسـير بيدَيْ ملـك ينتظر أن يقتله غدوًّا وعشيًّا؟ ما عندي غناء في شيء مما نزل بك إلا أن أنيسًا سائس الفيل صديق لي فسأرسل إليه وأوصيه بك وأعظم عليه حقك، وأسـأله أن يسـتأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك، ويشـفع لك عنده بخيرٍ إنْ قدر على ذلك، فقال عبد المطلب: حسبي.

فبعـث ذو نفـر إلى أنيس فقـال له: إن عبد المطلب سـيد قريـش وصاحب عين مكـة ومطعم الناس بالسـهل والوحوش في رءوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير، فاسـتأذِنْ له عليه وانفعْه عنده بما اسـتطعت، فقال: أفعل، فكلَّم أنيس أبرهـة فقال له: أيها الملك هذا سـيد قريش ببابك ويسـتأذن عليك وهو صاحب عين مكة، يطعم الناس بالسهل والوحوش في رءوس الجبال، فأْذَن له عليك فيكلمَك في حاجته، فأذن له أبرهة، وكان عبد المطلب أوسـم الناس وأعظمهم وأجملهم، فأجلَّه أبرهةُ وأعظمه ونزل عن سريره فجلس معه على بساطه قـال له: [ما] حاجتـك؟ فقال عبد المطلـب: حاجتي أن يرد عليَّ الملـك مائتي بعير أصابها لي، فقال له أبرهة: لقد كنت

أعجبتني حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟ قال عبد المطلب: إني أنا رب الإبل وإن للبيت ربًّا سيمنعه، قال أبرهة: ما كان ليمتنع مني، قال عبد المطلب: أنت وذاك، فرد عليه إبله وانصرف عبد المطلب إلي قريش وأمرهم بالخروج إلى شعف الجبال(٢) والشعاب تخوفًا عليهم معرة الجيش، ثم قام عبد المطلب، وهو آخذ بحلقة باب الكعبة فقال:

لاهم إن العبد يمـ
ـنع رحله فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم
ومحالهم غدوًا(٣) محالك(٤)
إن يدخلوا البلد الحرام
إذن فأمرٌ ما بدا لك

ثم انطلق مع قومه ينتظرون أبرهة ما هو فاعل بمكة إن دخلها، فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ جيشه يقدمه أضخم أفياله، ثم وجهه إلى الحرم فسقط كالبارك، فضربوه

---

(٢) الشعف جمع واحدته شَعَفَة، وشعفُ الجبال رءوسها. (المجلة).

(٣) الغدو اليوم الذي يأتي بعد يومك وأكثر استعماله مع حذف الواو. (المجلة).

(٤) المَحْـلُ انقطاع المطر ويبس الأرض من الشجر والكلأ. ومحل بفلان فعل ما يضره بكيد ومكر. (المجلة).

ضربًا شـديدًا فلم ينهض، فوجهوه نحـو اليمن وإلى كل جهة غيـر مكـة فنهض يهـرول، وأرسـل الله عليهم طيـرًا يجيئهم جماعـة في إثر جماعـة ترميهم بحجـارة، فأصابـت مَقاتِلَهُم وخرجـوا يتسـاقطون بـكل طريـق ويهلكـون بـكل مهلك، وأصيـب أبرهـة فجعل جسـمه يتناثر ويتسـاقط حتى انصدع صدره فمات بصنعاء.

التزيد في القصة وفرطحتها بالخيال:

هذا القدر من رواية القصة هو الذي أجمع عليه الرواة، وهو في مجموعه ليس فيه شيء يعسر على العقل الإيمان بوقوعه، لكـن أهل الإغـرام بالفضفضة والمبالغات السـابحة في بحار الخيـال الطيـار تزيدوا في كثيـر من أطراف القصـة وأطوارها تزيـدًا أخرجها عـن الحقيقـة التاريخية إلى حوادث التسـلية والسـمر، لا سـيما في طرف الإعجاز منها، وهو الطرف الذي ارتفعت به قدرة الله عن نواميس العادة المتكررة وسـنن الحياة المألوفـة إلى أفق سـنن الوجود الخاصة النـادرة التي لا تجيء على وفق تلك النواميس العامة، فقد تحدث هؤلاء المتزيدون عن الطير المرسـلة ووصفوها بأوصـاف لم تُبقِ لها من حقيقة الطيـر التي أخبر بها الله تعالى إلا رفرفة الأجنحَة والسـبح في فسـيح الأرجاء، وفيمـا عدا ذلك فهي جامعة لأشـكال جميع مـا خلق الله من حيـوان معروف أو غير معـروف، ولم تنج من هـذا التزيد الحجـارة التي رمت بهـا هذه الطيـرُ أبرهةَ وقومه

فلم يكفهم ما وصفه الله بها، بل أضافوا إليها من الأوصاف الخيالية كل غريب وعجيب، ولم يرضهم إلا أن تكون مبعوثة من جهنم ومكتوب على كل حجر منها اسم صاحبه، وهكذا مما جعل كثيرًا من الناظرين والكاتبين في تفسير القرآن والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي إذا عرضوا لهذه القصة أجحفوا بالحقيقة التاريخية وردوا ما فيها من إعجاز قُصِدَ به التمهيد للنبوة والتشريف لصاحبها، ومن اختير لها، وذهبوا في تأويل النصوص مذاهب متعسفة خشية التسليم بهذه المبالغات الجوفاء التي لا تنقص شيئًا من حقيقة الإعجاز في القصة لو خلت عنها.

تعسف المتأولين كان ثمرة لتزيد المتزيدين:

فهؤلاء المتَأوِّلون يأبون أن يقبلوا ظاهر القرآن في أن الله تعالى أرسل على أبرهة وجيشه جماعات من الطير تحمل معها حجارة شديدة الصلابة ترميهم بها حتى هلكوا كما يفهمه العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، فالطير في لغة العرب عامةً معروفُ المعنى، والحجارة كذلك معروفة المعنى، والقرآن إذ عبر بهما أراد إلى هذا المعنى المكشوف البين المتبادر إلى فهم السامع، ويبعد أشد البعد أن يكون القرآن الكريم قد أراد إلى هذا التعسف الذي يحمِّل الألفاظ معاني لم تعرف إلا بعد عدة قرون من نزول القرآن، فالمِيكْرُوب الذي يريدون أن يجعلوه من محامل لفظ الطير في سورة الفيل إذا كان في

عصرنا قد صار من الحقائق العلمية المسلمة، هو عند العرب وعامة المسلمين من الحقائق المجهولة التي يستحيل عليهم فهمها من كلمة (طير)، فتفسير القرآن به إسراف في التجني على اللغة وتعالم على السلف من أصحاب رسول الله ﷺ ومن جاء بعدهم من أعلام العلماء في مدى القرون الماضية من تاريخ الإسلام إلى أن كشف العلم عن المِيكْرُوب وحقيقته.

فإذا كان وزر المتزيدين في الروايات أنهم تزيدوا وأغرقوا، وقبلوا كل تافه وغثاء، فوزر المتأولين أنهم أجحفوا وتنقصوا وظلموا الحقيقة، وردوا ظاهر القرآن وصحيح الرواية لغير ضرورة ملجئة.

وإذا جاز التأويل في شيء من موضوعات القرآن الكريم وصرف ألفاظه عن معانيها الظاهرة المتبادرة لاعتياصها على بعض الأفهام، فالقصص القرآني أبعد ما يكون عن ذلك؛ لأن ألفاظ هذا القصص من الوضوح والبيان بمكان رفيع؛ لأن المقصود الأول من القصص في القرآن هو العظة والعبرة والتأسي، وذلك لا يتحقق إلا بألفاظ بينة المعاني واضحة الدلالة على مقصودها.

رواج أكذوبة حدوث الحصبة والجدري على الطبري ونقد ابن الأثير لها:

ولم يكتف بعض الكاتبين بالتأويل وصرف الألفاظ عن ظواهرها إنكارًا للإعجاز، ولكنه في سبيل الوصول إلى

غرض معين أقحم على القصة عنصر الأوبئة العامة والأمراض الجائحة، وتحدث عن الحصبة والجدري وأن وباءهما تفشى في جيش أبرهة ففتك به، ولعل جراثيم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر، وهذا بلا شك لون من ألوان المجازفة في الحكم على حقائق التاريخ؛ لأن هذا الزعم لا يستند على شيء من الروايات الثابتة، وإنما يعتمد على روايات واهنة وافقت هوى عند هؤلاء المتأولين فتمسكوا بها، وهي- مع ضعفها- ذكرت الحصبة والجدري كأثرٍ من آثار الإعجاز في الطريقة التي أنهت بها القدرة الإلهية الحادث على ما جاء في التعبير القرآني، وقد راج هذا الزعم على شيخ المفسرين أبي جعفر الطبري فقال: «فأقبلت الطير من البحر أبابيل مع كل طير ثلاثة أحجار، حجران في رجليه، وحجر في منقاره فقذفت الحجارة عليهم، لا تصيب شيئًا إلا هشمته وإلا نفط ذلك الموضع[٥]، فكان ذلك أول ما كان الجدري والحصبة والأشجار المُرَّة فأهمدتهم الحجارة»[٦]، وروى الطبري أيضًا عن يعقوب بن عتيبة أنه حدث: إن أول ما رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام»، وإنه أول ما رؤى بها

(٥) تورّم وخرج منه القيح(المجلة).

(٦) يقصد أنه كان ينتج عن الحجرة مرض الجدري أو الحصبة أو تخرج مكان سقوطها على الأرض شجرة من الأشجار المرة التي لا تصلح للإنسان ولا للأنعام (المجلة).

مرار الشجر الحرمل والحنظل والعشر ذلك العام[٧]، قال ابن الأثير: «وهذا مما لا ينبغي أن يعرج عليه، فإن هذه الأمراض والأشجار قبل الفيل منذ خلق الله العالم».

وفي حديث الفيل لا نحب أن نغفل هذه الرواية الغريبة التي يحكيها القرطبي في تفسيره فيقول: «فحُكي عن عبد المطلب أنه بعث ابنه عبد الله على فرس له، ينظر ما لقوا من تلك الطير فإذا القوم مشدوخين جميعًا، فرجع يركض فرسه كاشفًا عن فخذه، فلما رأى ذلك أبوه قال: إن ابني هذا أفرس العرب، وما كشف عن فخذه إلا بشيرًا أو نذيرًا، فلما دنا من ناديهم بحيث يسمعهم الصوت قالوا: ما وراءك؟ قال: هلكوا جميعًا».

وهذه الحكاية إذا صحت ولم يكن قد وقع فيها تصحيف في الاسم دلت على أن عبد الله أبا محمد رسول الله ﷺ شهد حادث الفيل، وأنه كان في يومه شابًّا جلدًا يعتمد عليه، وكانت له دراية بالفروسية وخبرة بركوب الخيل فبعثه أبوه ليكشف حال جيش أبرهة بعد أن تركت لهم قريش مكة وتحرزت بشعف الجبال، فذهب وجاء يركض فرسه على هيئة يتعرف بها المجربون من رجالات قريش والعرب آية

(٧) العُشْر: شجر مرٌ له صمغ (المجلة).

النجابة، وقد عرف ذلك أبوه فقال: إن ابني أفرس العرب، غير أن شهود عبد الله حادث الفيل لا يتفق إلا على أساس وقوع الحادث قبل زواجه بآمنة بنت وهب أم محمد رسول الله ﷺ إذا أخذنا بالرواية المشهورة التي تزعم أن عبد الله لم يلبث بعد زواجه أن توفي، أما إذا كان شهوده الحادث بعد زواجه فلا يتم إلا على رواية من يذهب إلى أنه عاش حتى ولد رسول الله ﷺ وبلغ من العمر ثمانية وعشرين شهرًا، أو حتى مضى من حمله سبعة أشهر على ما سنحققه عند الكلام على الميلاد النبوي إن شاء الله بعونه وتوفيقه.

ميلاد محمد ﷺ
وما احتفّ به من الأحداث

الصورة الفطرية في حمل آمنة بمحمد ﷺ:

ترسم كتب السيرة ومصادر التاريخ ميلاد محمد ﷺ والحمل به في صورتين مختلفتين إحداهما فطرية طبيعية، لأن محمدًا ﷺ فيها إنسان حملت به أمه كما تحمل سائر الأمهات ولدانهنّ زمانًا وحالة.. روى القسطلاني في مواهبه عن أبي زكريا يحيى بن عائذ أنه قال: بقي ﷺ في بطن أمه تسعة أشهر كمَّلًا، لا تشكو وجعًا ولا مغصًا ولا ما يعرض لذوات الحمل من النساء.

وكانت تقول: والله ما رأيت من حمل هو أخف منه ولا أعظم بركة منه.

ويقول القسطلاني أيضًا: واختلف أيضًا في مدة الحمل به، فقيل تسعة أشهر وقيل عشرة وقيل ثمانية، وقيل سبعة، وقيل ستة، وكل هذه الأزمنة محتملة في الحمل بالولدان لكثير من النساء في جميع العصور والبلدان، وما من زمن منها إلا وقد حفظ التاريخ وشهد الواقع أنه كان زمنًا لحمل كثير من الولدان أو الولائد، فليس في شيء منها خصوصية لمحمد ﷺ تخرج بحمله عن معهود الناس وطبائع الحياة فيهم.. وأكثر الرواة يذهبون إلى اختيار أبي زكريا في أن الحمل به ﷺ كان تسعة أشهر كاملة، وهذا ميل منهم إلى الواقع الفطري في تصوير

زمان حمله ﷺ، وكذلك جرت الرواية في تصوير حالة الحمل به، فأمه لم تشعر لحمله بمشقة ولا وجدت له ثِقلة، وكثير جدًا من الولدان من لا تشقى بهم أمهاتهم في حملهن بهم، فلا يجدن للحمل ألمًا ولا ثقلًا، بل كثيرات من الأمهات ولا سيما أبكارهن لا يشعرن بالحمل إلا بعد مضي زمنه لخفته عليهن وقوة بنيانهن، مع اعتدال مزاجهن، وكمال صحتهن.

فليس عجيبًا أن تكون أم محمد ﷺ - وهو بكرها فلم تعرف الحمل قبله، وهو وحيدها فلم تحمل بعده - وقد حملت به فلم تشعر أنها حملت إلا حينما أنكرت رفع حيضتها، وليس غريبًا ألَّا تجد لحمله ثقلًا ولا وصبًا مما يعتري كثيرات من النسوة والحاملات.. قال ابن سعد في الطبقات: إن آمنة بنت وهب لما حملت برسول الله ﷺ كانت تقول: ما شعرت أني حملت به ولا وجدت له ثقلة كما تجد النساء إلا أني قد أنكرت رفع حيضتي، وربما كانت ترفعني وتعود، وروى أيضًا من طريق شيخه الواقدي عن الزهري أنها قالت: لقد علقت به فما وجدتُ له مشقة حتى وضعته.

فليست خفة الحمل وعدم المشقة فيه مما يدخل في باب العجائب الخارقة لعادات الناس الجارية في مألوفاتهم، ولا هو مما يدخل في شيء من خصائص التكريم والتشريف، فهو أمر معهود مشهود مكرور لعامة الناس وخاصتهم.

وليس ثقل الحمل وظهور عوارضه اللاغبة مما يخرج عن

سنن الحياة، ولا هو في شيء من دلائل عدم الرعاية الربانية للوليد وأمه، فإذا كان بعض الرواة قد روى خفة حمل آمنة برسول الله ﷺ فإن بعضًا آخر قد روى ثقله وشدته عليها حتى كانت تشكو منه لصواحباتها. روى الطبري وغيره من حديث العامري عن شدَّاد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال في جواب مساءلة العامري: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى ابن مريم، وإني كنت بكر أمي، وإنها حملت بي كأثقل ما تحمل النساء وجعلت تشتكي إلى صواحباتها ثقل ما تجد».

ويحدثنا ابن سعد في طبقاته أن آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ قالت: قد حملت الأولاد فما حَمَلْتُ سخلةً أثقل منه[٨]. وهذه رواية شاذة منكرة وليس شذوذها ونكارتها لما اشتملت عليه من حديث ثقل الحمل وشدته لمناقضتها لِمَا رُوِيَ من طرق كثيرة في خفة الحمل به ويسره على أمه، ولكن لما فيها من زعم أن آمنة بنت وهب حملت بغير وحيدها محمد بن عبد الله صلوات الله عليه، وهذا ما لا يشك في بطلانه جمهور الرواة والمؤرخين. قال الواقدي معقبًا على هذه الرواية الزائفة: وهذا مما لا يعرف عندنا ولا عند أهل العلم؛ لم تلد آمنة بنت وهب ولا عبد الله بن عبد المطلب غير رسول الله ﷺ، ولولا كلام الواقدي لأمكن تخريج هذه الرواية على إفادتها مجرد

(٨) السَّخْلة اسم للمولود من الغنم ضأنًا ومعزًا ذكرًا كان أو أنثى. وجمعها سِخالٌ وكان تعبير(ما حملت سخلة أثقل منه) تعبيرًا دارجًا لبيان خفة الحمل (المجلة).

ثقل الحمل، وذلك بأن تقرأ بضبط لفظ (حُمِّلْتُ) بالبناء للمفعول وتكون تعبيرًا عن معاناة الحمل عند كل والدة، وتضبط لفظة فما (حملت) سخلة كذلك بالبناء للمفعول.

إنسانية محمد ﷺ في ميلاده:

وهذه الصورة الفطرية الطبيعية تصور محمدًا ﷺ في ميلاده إنسانًا ولدته أمه في يسر وبهجة وضيئًا نظيفًا، حلو الملامح جميل المحيا كما تلد كثيرًا من الولدان أمهاتُهم، وتلقته على يديها قابلته الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف الزهرية كما يتلقى القابلات سائر الولدان، وقد بُشر به جده عبد المطلب ففرح به فرحًا شديدًا، لأنه رأى فيه خلفًا من أبيه الحبيب، يرى في مُطالعة مُحيَّاه ذكريات الأبوة الحانية، فأخذه بين يديه ودخل به الكعبة، وقام عندها يدعو الله ويشكر ما أعطاه، وقد شارك عمومة محمد عليه السلام أباهم الشيخ فرحته بولادة ابن لأخيهم عبد الله الذبيح الذي ذهب فلم يعد، وقد عمَّهم الفرح وشملهم البشر فتصدقوا وأهدوا وأعتقوا حتى من كشف الغيب عن عداواته لمحمد عليه السلام، فهذا عمه أبو لهب - وقد سجل القرآن في ذمه ما سجل - تذكر الرواية الصحيحة أنه لما بشرته مولاته ثويبة بولادة النبي ﷺ أعتقها، وكانت بعد عتقها أول من أرضع رسول الله ﷺ مع عمه حمزة بن عبد المطلب قبل أن يُسترضعا في بني سعد بلبن ابن لها يقال له مسروح، وشاركهما في لبنها أبو سلمة، وكان النبي عليه السلام يبرها ويسأل عنها وعن أقاربها وفاء لها.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث الزهري عن عروة بن الزبير عن زينب بنت أم سلمة أم المؤمنين عن أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين رضي الله عنهما قالت: يا رسول الله انكح أختي عزة بنت أبي سفيان، فقال رسول الله ﷺ: «أوتحبين ذلك؟» قلت: نعم، لست لك بمخلية، وأحبُّ من شاركني في خير أختي، فقال النبى ﷺ: «فإن ذلك لا يحل لي» قالت: فإنا نحدِّث أنك تريد أن تنكح درة بنت أبي سلمة، قال: «بنت أم سلمة؟» قلت: نعم، قال: «إنها لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلَّت لي، إنها لابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن عليَّ بناتكن ولا أخواتكن».. زاد البخاري: قال عروة: وثويبة مولاة لأبي لهب أعتقها فأرضعت رسول الله ﷺ، فلما مات أبو لهب أُريه بعض أهله بشَرِّ حَيْبَة[٩] فقال له: ماذا لقيت؟ فقال أبو لهب: لم ألق بعدكم خيرًا غير أني سُقيت في هذه بعتاقتي ثويبة، وأشار إلى النقرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع.

قال ابن كثير: قالوا: لأنه لما بشَّرته ثويبة بميلاد ابن أخيه محمد بن عبد الله ﷺ أعتقها من ساعته فجُوزِيَ بذلك [الجزاء] لذلك [الفعل]. وقال القسطلاني في المواهب: وأرضعته ﷺ ثويبة عتيقة أبي لهب أعتقها حين بشَّرته بولادته عليه السلام.

---

(٩) الحيبة: الهم والحزن. قال في اللسان: وفي حديث عروة لما مات أبو لهب أريه بعض أهله بشر حيبةٍ أي بشر حال.

يوم ميلاد محمد ﷺ وبعض أحواله عند الميلاد:

وقد صح من طرق كثيرة أن محمدًا عليه السلام ولد يوم الاثنين لاثنتي عشرة مضت من شهر ربيع الأول عام الفيل في زمن كسرى أنو شروان، ويقول أصحاب التوفيقات التاريخية: إن ذلك يوافق اليوم المكمل للعشرين من شهر أغسطس سنة ٥٧٠ بعد ميلاد المسيح عليه السلام، ووراء ذلك خلاف عريض في زمن ميلاده يومًا وشهرًا وعامًا لا طائل تحت استقصائه، ولكنه يشعر بصادق العناية في تقصِّي واستيفاء ما يتعلق بحياته ﷺ مما لم يتوافر في سيرة شخصية من شخصيات الأنبياء والرسل والقدِّيسين والقادة والمصلحين.

ومكان ولادته معروف بمكة مشهور، تقلبت عليه الأحداث فتغلَّب عليها، حتى انتهى به الأمر إلى أن صار في عصرنا دارًا للحديث، وقد كنت بمكة في سنة ١٣٧٠ الداخلة في سنة ١٣٧١ هجرية(١٠)، ورأيت أسس البناء عليه قائمة، وكانت التبرعات تجمع له من أجواد المسلمين، ولا شك أن هذا المكان كان جزءًا من دار جده عبد المطلب، انتقلت إليها آمنة وهي حامل به ﷺ، وقد عقَّ عنه جده عبد المطلب في يوم سابعه فرحًا بمولده. روى البيهقي عن أبي الحكم التنوخي قال: فلما كان اليوم السابع ذبح عنه جده عبد المطلب ودعا له قريشًا، فلما أكلوا قالوا: يا عبد المطلب أرأيت ابنك هذا

(١٠) لعله يقصد بالسنة هنا السنة الدراسية(المجلة).

الـذي أكرمتنـا على وجهه ما سـميته؟ قال: سـميته محمدًا، قالوا: فما رغبت به عن أسماء أهل بيته؟ قال أردت أن يحمده الله في السماء و[بحمده] خلقه في الأرض.

وفـي رواية أن أمه حَدَّثـت أنه قيل لها في النوم سـمِّيه محمدًا فسمته به، فلما وضعته أرسلت إلى جده عبد المطلب وكان على فراشه في ظل الكعبة - حوله ولده والملأ من قريش - أنه قد ولد لـك غلام فأته فانظر إليه، فأتاه هو ومن معه من ولده وقومه فنظر إليه، وحدثته آمنة برؤياها وما أمرت أن تسميه فسمَّاه بما قالت، وهذا الاسـم لم يكن من الأسـماء الذائعة المنتشـرة بين العرب، ومن ثَمَّ اسـتغربه الملأ من قريش لما سـألوا جده عن اسمه الذى سـماه به فأخبرهـم، ولكن التاريخ حفظ ذكـر جماعة من العرب سُـمُّوا بهذا الاسـم تطلعًا إلى ما كان مسـتفيضًا على ألسـنة أهل الكتـاب والمتحنفيـن مـن ترقب ظهور نبـي من بني إسـماعيل يسمى بهذا الاسم.. والله أعلم حيث يجعل رسالته.

تنفـس محمد ﷺ نسـيم الحياة يتيمًا فَقَدَ أباه قبل أن يشـهد الوجود طلعته، فقد مات عبد الله بن عبد المطلب ورسول الله ﷺ جنين في بطن أمه، وقد ترك له خمسًا من الإبل وقطعة [أو قطيعًا] من الغنم وجارية هي حاضنته أم أيمن بركة الحبشية، وقد أعتقها ﷺ وزوجهـا مولاه زيد بـن حارثة فولدت له أسـامة بن زيد، هذه هي الصورة الفطرية التي رسـمتها كتب السـيرة والتاريخ لميلاد محمد ﷺ في أشهر الروايات وأشبهها بالحق والواقع.

صورة العواطف المشبوبة بالحب تخضع للخيال:

أما الصورة الأخرى التي رسمتها كتب السيرة ومصادر التاريخ لمحمد ﷺ في الحمل به وفي ميلاده فهي صورة مليئة بالأعاجيب والخوارق والمعجزات، وإن شئتَ قلتَ هي صورة كلها أعاجيب وخوارق ومعجزات، حتى ما كان من أمره ﷺ إنسانيًا متمشيًا مع الحياة الفطرية نجده في هذه الصورة المصنوعة قد انخرط في سلك الأعاجيب والخوارق المعجزة في منزع من التكلف في التأويل وضرب من التعسف في التخريج، فخفة الحمل به على أمه إذا رويت في سيرته وجب أن تكون خارقة للعادة داخلة في باب الإرهاصات المعجزة، وثقلة الحمل به وشدته على أمه إذا رويت في سيرته وجب أن تكون خارجة عن مألوف الناس ومكرور عاداتهم، فهي إرهاص معجز لا يكون إلا لمن كتب في رقيم الأنبياء، وإذا اختلفت الروايات فجاء في بعضها خفة حمله على أمه وأنها لم تشعر بوجع ولا وحم وجاء في بعضها الآخر ثقل الحمل وشدته شدة تشكوها إلى صواحباتها، وجب أن يوفق بين هذه الروايات المتخالفة على أساس إثبات كل حالة، وعلى أن تكون كل حالة في وضع غير طبيعي لتكون إرهاصًا معجزًا.

قال القسطلاني في المواهب بعد أن ساق حديث شداد بن أوس في مساءلة العامري لرسول الله ﷺ عن بدء شأنه:

ففيه أن أمه عليه السلامٍ وجدت الثقل في حمله، وفي سائر الأحاديث أنها لم تجد ثقلًا، وجمع الحافظ أبو نعيم بينهما

بـأن الثقل به كان في ابتـداء علوقها به والخفة عند اسـتمرار الحمل به، فيكون على الحالين خارجًا عن المعتاد المعروف.

وللباحـث -بداهة- أن يتسـاءل: ولماذا كل هـذا التكلف؟ وما الحامل عليه؟ هل يضير سيرة محمد ﷺ أن يكون في حمله إنسانًا بشـرًا يخف حملـه كما يخـف حمل الولـدان من الأناسـي ويثقل ويشـتد كما يثقل ويشـتد حمـل الأجنة من بنـي آدم؟ وهل يخدش النبوة أن يكون النبي في حمله جاريًا على مقتضى طبيعة الأحياء؟.

لله في كونه وملكه سنن عامة وسنن خاصة:

ليـس مـن رأينا ولا في مذهبنـا أن ننكر الإرهاصـات المعجزة جمـودًا مع الجامدين المتعاليـن الذين يريدون أن يخضعوا جلال الألوهية وعظم سـلطانها لسـلطان عقولهم في حدود ما يعرفون من سـنن الحياة، هذا غرور بليد لأن ما عرف من سنن الحياة تافه قليل إلى جانب ما لم يعرف. وحتى الذي عُرف من سنن الحياة لا ينكـر هذا الضرب من الخلق والتكوين الذي يراه من يقيسـه إلى سنن الحياة العامة المألوفة المتكررة معجزًا خارقًا لقوانينها، وهو في نظامه وتكوينه وأسبابه خاضع لسنن خاصة تعرفها الحياة في أوقات ومناسبات خاصة، فهو في حقيقة أمره من سنن الله القائمة على أسباب ومناسبات مطَّردة في بابها، وطرائقها.

وإنمـا مذهبنا فـي تقبل هذه الإرهاصـات أن نثبتها من الرواية الثابتة ثبوتًا لا يحتمل الطعن والتجريح في سـندها أو متنها على مـا ذهبنا إليـه في حادث الفيل اعتمادًا علـى النص القرآني، فهل

جاءت الرواية التاريخية في حادث الحمل بمحمد عليه الصلاة والسلام بهذا التفريق بين أول الحمل واستمراره بما يسوغ هذا التأويل، ولماذا لا يكون العكس صحيحًا فتكون خفة الحمل في أوله ويكون ثقله وشدته في استمراره؟ وهذا هو الموافق للفطرة التي فُطر الناس عليها وبها يتم الجمع والتوافق بين الروايات والجمع بين الأحاديث إذا صحت بها الرواية كلها.

وهذه الأعاجيب والإرهاصات المعجزة لا تقف عند شخصية محمد عليه الصلاة والسلام، فتجعله متكلمًا في المهد ساجدًا رافعًا إصبعيه إلى السماء كالمتضرع إلى غير ذلك. ولكنها تبدأ بأمه فتجعلها مكلَّمة في يقظتها مرة وفي منامها مرة أخرى بكلام طويل ترويه كتب السيرة ومصادر التاريخ من النثر والشعر، وتنتبه من نومها فتجد عند رأسها صحيفة من ذهب مكتوب فيها أبيات من الشعر تعويذة لوليدها، ثم تتلقى اسمه تلقيًا، وتتنزل عليها الملائكة ساعة ولادتها فتمسح بأجنحتها على فؤادها فيذهب ما بها من أوجاع وآلام، وتُسقى شربة بيضاء ليست من شراب الدنيا، وتتنزل عليها نسوة كالنخل طوالًا فترعب منهن فيعرفنها بأنفسهن ليذهب عنها الروع، وإذا هُنَّ آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وطائفة من الحور العين، حتى إذا وضعته تنزلت عليها الملائكة عيانا في صور وألوان وأحوال غاية في العجب، وأخذوه منها وغيبوه عنها وطافوا به مشارق الأرض ومغاربها على الإنس والجن

والملائكة والطيور والوحوش ليعرفوه، إلى شيء كثير وكثير جدًا لا يحيط به الحصر.

والعجيب في هذه الأعاجيب والإرهاصات أنها لا تقف عند حد ولكنها تتصل بكل شيء، فهي في الأرض وفي السماء، وفي البر وفي البحر، ومع الإنس ومع الملائكة ومع الجن، وفي أرض العرب، وفي بلاد العجم، فإيوان كسرى ارتجس ليلة ميلاد محمد عليه السلام وسقطت منه أربعة عشر شرفة، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة ساوه، ورأى الموبذان رؤيا أفزعت كسرى فأوفد عبد المسيح إلى سطيح فسجع له وهدر(١١) وحذَّر وأنذر، وبشرت وحوشُ المشرق وحوشَ المغرب، ونطقت الأصنام، وهتفت الأنعام، وتكلمت الجمادات إلى ما لا يحصى كثرة.

ولو أن باحثًا حاول أن ينسب هذه الإرهاصات المروية في حمْله وولادته ﷺ إلى ما روي من معجزاته الكونية بعد نبوته ـ وهو وقت الحاجة إليها إن كانت إليها حاجة ـ لوجد الفارق شاسعًا والبون بعيدًا في العدد والنوع والأسلوب، فهنا ـ في الحمل والولادة ـ يجد كثرة غامرة وأنواعًا مختلفة الألوان، وأسلوبًا عنيفًا، وهناك ـ بعد النبوة ـ يجد عددًا محصورًا من المعجزات في أنواع متقاربة تكاد تكون محصورة في أسلوب

(١١) الهدير تكرار الصوت، منه هدر الحمام: صوَّت، وهدر البعير: ردد صوته في حنجرته، وهدير البحر: صوت أمواجه. (المجلة).

هادئ يرمـي إلى تثبيت الإيمان وإيقاظ الوجدان إلى رحمة الله وواسـع قدرته في تشـريف رسـوله وتكريمه بألوان من سـنن الحياة الخاصة بمن اصطفاهم الله لهداية الخلق.

على أن أكثر روايات الإرهاصات في الحمل والميلاد يقفِّيها رواتها بقولهم: لا أصل له أو شـديد الضعف، أو مطعون فيه، أو مُتكلَّـم فيه، ونحو ذلك مما يـدل على أنه ما كان ينبغي أن تسـوّد بمثله صحائف النور في السـيرة العطرة لأكرم النبيين وسيد المرسلين.

دعائم رأينا في وقوع السنن الخاصة:

وعلى ضوء ما أصَّلناه للبحث عند الحديث على حادث الفيل، وما عرضنا له هنا في الأعاجيب والخوارق المعجزة نرى:

أولًا ـ أن وقـوع حـوادث كونيـة تخفـى على العقول أسـبابها وعواملها المنشئة ـ وهو ما نسميه بالأعاجيب ويسمى في مشهور عرف العلماء بالإرهاصات إن وقع قبل النبوة وبالمعجزات والآيات إن وقـع في زمان النبوة ـ أمر قامت على جوازه ووقوعه الدلائل من النصوص القطعية في الكتب السـماوية والنقـول التاريخية التي بلغت في جملتها مبلغ التواتر القاطع. ومن البراهين العقلية التي تقرر هذه السـنن الخاصة قيومية الخالق عز شـأنه وانطلاق قدرته من قيود القوانين والعـادات المعلومة - في حدود مدارك العقول الإنسـانية - إلى سـنن كونيـة وقوانيـن للوجود فـوق آفاق تلك العقـول، تحْدُث على وفقها تلك الأحـداث الكونية والأعاجيب

الإعجازية إذا تطلبتها أسبابها وحانت مناسباتها والله فعال لما يريد لا يُسأل عما يفعل.

ثانيًا - أن القرآن الكريم - وهو أثبت وأصدق نص تاريخي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - قص علينا في قصص الأنبياء بعض آياتهم المعجزة من الأحداث الكونية التي وقعت على أيديهم مما جرى مجرى التشريف والتكريم، ومما تحدَّوا به أقوامهم مما لا يمكن أن يدخل تحت سنة من سنن الحياة المعروفة للعقول والمعهودة في عادات الناس ومألوفهم، وقد سمَّى القرآن بعض تلك الآيات الكونية المتحدية براهين(١٢)، فانقلاب عصى موسى حية تسعى، وإخراج يده بيضاء من غير سُوء، وانفلاق البحر له ولقومه، ونتق الجبل فوقهم كالظلة، وإحياء عيسى للموتى، وإبراؤه للأكمه والأبرص، وإنباؤه قومه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وخلقه من غير أب، وإيتاء أمه مريم عليها السلام رزقًا دون حركة آلية أو تسبب، مما بعث كافلها زكريا عليه السلام على التعجب، ونقل عرش بلقيس من المسافة البعيدة في أسرع من لمح البصر، وما وقع لأصحاب الكهف، وعدم إحراق النار إبراهيم عليه السلام، وسائر آيات الأنبياء في قصصهم التي لا تحتمل تمحّلًا ولا تأويلًا، كل ذلك من الأعاجيب المعجزة والخوارق التي وقعت فعلًا وشهدها

---

(١٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ (القصص: ٣٢)(المجلة).

الوجود ،[براهين أو آيات دالة على معية الله وقد] استفاضت بها روايات التاريخ بنقل الأجيال عن الأجيال منذ كانت النبوة لبني الإنسان إلى يوم الناس استفاضة تدفع بمنكريها إلى محابس الممرورين وذوي العته العقلي ونقص التكوين الإدراكي.

ثالثًا - إذا ثبت وقوع الأعاجيب المعجزة والحوادث الكونية الخارقة لمعروف العقول في سنن الحياة العامة فالنظر فيما يروى منها جملة في سيرة نبينا محمد ﷺ قبل نبوته أو في زمنها يجري على سنن تلك الآيات وقوانينها، ويبقى على الباحث النظر في إثبات أفراد تلك الحوادث والجزئيات التي سجلتها السيرة النبوية، فما ثبت منها بطريق صحيح السند صادق الرواية وجب قبوله والإذعان بوقوعه، لأن ردَّه أو التشكُّك فيه بعد ثبوته بهذه الطريقة التي لا طريق للإثبات التاريخي فوقها رد لبرهان العقل القاطع ورد لنص القرآن في إثبات الآيات المعجزة، ولا فرق بين آية وآية، ورد البرهان العقلي والنص القرآني إلحاد في دين الله أو جهل بسنن الحياة أو تشكيك في قدرة الله.

وما لم يثبت منها هذا الثبوت فنحن في حِلٍّ من إنكار وقوعه أو التوقف في الحكم عليه إثباتًا أو نفيًا، والتوقف أسلم وأحكم - كما يقول علماؤنا - لأنه محتمل الثبوت، وقد قامت الدلائل في العلم التجريبي وفي وسائل البحث التاريخي على أن كثيرًا مما كان يُنكَر من الحقائق العلمية والحوادث التاريخية أصبح اليوم

ثابتًا مقررًا في بدائه العقول، وكثيرًا مما كان يُزعم [أنه] حقائق علمية ومقررات تاريخية [قد] صار [اليوم] في مهب الأساطير والخرافات، فالتسرع في الإنكار خطل في الرأي، والتسرع في التصديق قبل الإثبات غميزة في العقل.

قانون البحث في كل ما يتعلق بالآيات والأعاجيب:

وعلى هذا الهدي جرينا ونجري في البحث بتوفيق الله تعالى، فنعرض لما يروى في السيرة العطرة من هذه الأعاجيب الكونية المعجزة نحاكمه إلى صحة السند وصدق الرواية، فإذا ثبت لهذه المحاكمة وفاز فيها بعنوان الوجود الواقعي سجلناه مؤمنين مذعنين، وإذا لم يثبت وطاحت به الرواية أو خانه السند الصحيح طرحناه حيث ينتهي غير آسفين.

وأعلى ذلك عندنا وأرفعه في منازل القبول والصدق القاطع ما يذكره القرآن في صراحة ظاهرة، أو يشير إليه إشارة لمَّاحة، وبين المرتبتين من الفرق ما بين الأسلوبين في التعبير، فلا يجوز التلبث في قبول المرتبة الأولى والإيمان بها، ولا يقبل أن يمشي التأويل إلى ساحتها، تشبثًا من المتأولين بمعروف العقول وقضايا العلم وقوانين المنطق ومألوف سنن الحياة؛ لأن معروف العقول وقضايا العلم وقوانين المنطق ومألوف سنن الحياة مخلوقة لله تعالى، فهي محكومة بواسع قدرته ومطلق سلطانه في تعريف خلقه، فلا يسوغ في معروف العقول السليمة وقضايا العلم الصحيح وقوانين المنطق المستقيم

أن تجعل حاكمة على خالقها، وإلا كانت الألوهية ضربًا من الوثنية التي يصطنعها الناس بعقولهم وعواطفهم وأخيلتهم.

والمسألة هنا ليست مسألة عقل يحكم أو منطق يقيس ويبرم ثم ينتهي كل شيء، وإنما هي مسألة عقل يبحث في أصل الإيجاد والإبداع، فإذا استقام له أن يقيم هذا الأصل على دعائم ثابتة جاءت الحوادث الجزئية بطبيعتها خاضعة لناموس الإيجاد والإبداع العام فقط دون أي ناموس آخر يحكمها في وجودها الجزئي.

وإذا صحَّ للعقل أن الإيجاد والإبداع صفة دائمة تقتضيها الألوهية وتجعلها سارية في ذرات الكون وجزئيات الوجود، ثم طلبنا إلى هذا العقل أن يحدد لنا أسلوب الألوهية في الإيجاد وطريقتها في التكوين والإبداع لم يَحر جوابًا لأنه أعجز من أن يصل إلى هذه الحقيقة وهي أبدًا أمامه في كل لحظة من لحظات الحياة، وإلى ذلك يشير القرآن الحكيم في طرف من قصة إبراهيم عليه السلام حيث يقول:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(البقرة: ٢٦٠)

فإبراهيم عليه السلام مؤمن أرسخ الإيمان، موقن أشد الإيقان بأن إيجاد الحياة في الموت إعادة أو بدءًا، صفة الإلهية الخالقة القادرة، ولكنه أراد إلى يقين آخر في معلوم جديد وهو أن يريه الله حالة الإيجاد

والإبداع وأسلوبه وطريقته، ولذلك قيل له تطمينًا لقلبه على طريق الاستفهام التقريري: أنت مؤمن بما هو كمال خلّتك ومنتهى مجال إنسانيتك في الاعتراف بقدرة الخالق على الإيجاد والإبداع، وهذا هو غاية مجال العقل الذي يجب أن يقف عنده، ثم أجيب إلى ما طلب بطريق الرمز التمثيلي إشارة إلى أن هذه مرتبة روحانية محضة فوق متعارف العقول.

ولنا في هذه الآية فهم قائم على أساس ما قاله بعض الأئمة في تفسير ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ بمعنى ميلهن إليك، بعقد أواصر المحبة الجاذبة من غير اختيار، فإذا تم هذا ففرقهن عنك في أماكن متباعدة، وكن منهن بحيث يرينك ويسمعن نداءك، ثم ادعهن وافهم كيف يأتينك ساعيات إليك، ولله المثل الأعلى وهو عزيز لا يغلب، حكيم تصدر شئونه على مقتضى حكمته في تدبير خلقه، وفي طي هذا الفهم أسرار لا يباح نشرها إلا لأهل العلم الموقنين.

أما قول جمهور المفسرين إن معنى ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ فقطعهن، فإنه إلى كونه يجعل المتعلق - وهو محط الإفادة - بمضيعة في البين، هو بمعزل عن المقصود من سوق السؤال والإجابة.

أما المرتبة الثانية، وهي الأعاجيب التي يشير إليها القرآن ولا يذكرها صراحة، فإن تأيدت بروايات صحيحة السند من السنة النبوية كان حظها في الإيمان بها وقبولها مثل حظ سابقتها، لكن لا على أنها هي التفسير للنص القرآني قطعًا كما في المرتبة السابقة، بل على أنها وجه لتخريج النص وفهمه مع قيام صحة غيره من الوجوه المحتملة إذا استقام لها الدليل، وإن لم تجد لها عضدًا قويًا من الرواية الصحيحة قبلنا ما يذكر فيها من تأويل قويم على أنه معنى راجح في الدلالة على استنباط ما تشير إليه من حادث كوني معجز، دون أن ينفي صحة أن يكون هذا الحادث الكوني المشار إليه معنى من معاني النص المحتملة.

ودون ذلك مراتب أعلاها ما يروى في المصادر المعتبرة عند ذوي العلم بسند صحيح وطرق متعددة، وأدناها ما ينفرد بروايته مصدر ضعيف أو راو لا يتحرز.

أما الآثار والأحاديث الموضوعات والأباطيل التي ينص الأئمة على وضعها واختلاقها فلا تصلح أن تكون في مراتب الاعتداد والحسبان.

والأمثلة على ما ذكرناه من المراتب كثيرة في السيرة النبوية، ولا تعوز الباحث، فهو يجدها أنى طلبها، وحادث الفيل أوضح مثال على ما ذكره القرآن الحكيم من الأعاجيب المعجزة في صراحة ظاهرة، ومن هنا بسطنا القول فيه بسطًا يجلي ما فيه من إعجاز يرد ما زعم فيه من تأويل يخرجه عن حقيقته المعجزة

التي سيقت في القرآن للامتنان بها على محمد رسول الله ﷺ تشريفًا له وتكريمًا، وتنويهًا بذكر قومه وبلده.

ويشارك حادث الفيل في هذه المرتبة قصة انشقاق القمر، فقد ذكرها القرآن في صراحة ظاهرة وتضافرت على رواياتها المصادر العالية في روايات ارتفعت على الصحة حتى كادت تكون متواترة وسنعرض لها عند فرصتها من البحث.

وقصة شق صدره ﷺ وهو فطيم عند ظئره في بني سعد كما في بعض الروايات وهو المعول عليه، المنصور عند جمهور الأئمة، أو ليلة الإسراء به، كما في بعض الروايات الأخرى، مثال للمرتبة الثانية من الأعاجيب الكونية التي أشار إليها القرآن إشارة لماحة وتأيدت بروايات صحيحة الأسانيد، فقد ذكر كثير من المفسرين أن قول الله -تعالى-:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾

إشارة إلى هذه القصة المعجزة، وقد تأيد ذلك برواية لمسلم في صحيحه ذكر فيها قصة شق الصدر زمن الطفولية، وبرواية له وللبخاري في صحيحيهما ذكرا فيها قصة شق الصدر ليلة الإسراء، وأورد الترمذي قصة شق الصدر في تفسير ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾، وسنعرض بشيء من البسط لهذه القصة أيضًا عند مناسبتها، ويدخل في هذا تظليل الغمامة وقصتها مروية في جامع الترمذي وغيره من كتب الحديث ودواوين السنة.

ومـن قبيل المرتبـة الثانية : أنبـاء أهل الكتـاب والآخذين عنهـم مـن مُتَحنِّفـة العـرب ومتدينيهـم بزمن مولـده وبعثه والتنويـه بذكـره ؛ لأن القـرآن ذكر أنهم يجـدون محمدًا ﷺ بنعته واسـمه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل ، وقد جاءت الروايـات الصحيحـة عـن أخبارهم بمـا علموا قبـل أن يظهر شأنه ، ويدخلهم الحسد فيدفعهم إلى كتمان أمره ﷺ .

وقصص تكثير القليل من الطعام ، أو الماء حتى يكفي الجم الغفير من الناس طعامًا مشبعًا وشرابًا رويًا وطهورًا نقيًا ، وقصة تكلم البقرة التي حمـل عليها صاحبها متاعه وركبها فقالت : (إني لم أخلق لهذا) أمثلة لأعلى مراتب ما لم يذكر في القرآن تصريحًا أو إشـارة ، ولكنه روي في المصادر المعتبرة بأسانيد صحيحـة ، فقـد روى البخاري ومسـلم فـي صحيحيهما هذه القصص ، بروايات متعـددة وطرق كثيرة ، ورواها غيرهما من أصحاب السنن والصحاح .

حديث رد الشمس يوم قريظة حتى تصلى العصر في وقتها:

وقصة رد الشمس يوم قريظة حتى تُصلى العصر فى وقتها ، تذكـر في مصادر لا يتفق عليها مهرة النقاد والمحدثين ، فهي مثـال لأدنى ما لـم يذكره القرآن أو يشـير إليـه . فقد خرجها الطحـاوي في مشـكل الحديث عن أسـماء بنت عميس ووثق رواتها ، وضعف ابن الجـوزي حديثها بل كذَّبه وحكم بوضعه فقـال : وغلـو الرافضة في حب علي -رضـي الله عنه- حملهم

على أن وضعوا أحاديث كثيرة في فضله، منها أن غابت الشمس ففاتت عليًا -رضي الله عنه- صلاة العصر فَرُدَّت له الشمس، وهذا من حيث النقل محال ومن حيث المعنى؛ لأن الوقت قد فات بغروبها وعودها طلوع متجدد لا يرد الوقت، ونضيف إلى ذلك أن الشمس لم ترد للنبي ﷺ ومعه جمهور أصحابه في إحدى سفراته، وقد نزلوا واديًا، فقال النبي ﷺ لبلال: (اكلأ لنا الفجر)، فناموا ونام بلال فلم يوقظه إلا حر الشمس، فرحلوا عن الوادي ثم صلوا الصبح.

أما الموضوعات والأباطيل فأمثلتها أكثر من أن يعد منها، وفي قصص الميلاد نبع فياض لها.

وقد تمحك بعض الباحثين -في سبيل إنكار الأعاجيب والمعجزات الحسية- بالسنن الكونية وإخبار القرآن أن سنة الله لن تجد لها تبديلاً، وهذا إيهام مضلل؛ لأن سنة الله التي لن تجد لها تبديلاً هي السنة الكونية بمعناها الأعم الأشمل التي تشمل السنن العامة مما يدخل في معروف العقل ومألوف العادة، والسنن الخاصة التي ترتفع فوق مستوى معروف العقول وتختص الألوهية بالإحاطة بأسبابها وأسلوب إيجادها، فالأعاجيب الكونية والمعجزات الخارقة لمألوف العادة عند مناسباتها من سنة الله التي لن تجد لها تبديلاً.

وأدخل من هذا في الإيهام المضلل قول منكري المعجزات الكونية: إن حياة محمد ﷺ كانت كلها حياة إنسانية سامية،

وإنــه لم يلجـأ في إثبات رســالته إلى ما لجأ إليه مَن ســبقه من أصحاب الخوارق.

وهذا غلط أو مغالطة، أو هو من قول الحق الذي أريد به الباطل، لأن إنسانية حياة محمد ﷺ وسُمُوّها كلام لا يتحدث به عن محمد رسول الله ﷺ وإنما يتحدث به عن محمد الإنسان العبقري العظيم المصلح، وما شــاكل كل ذلك من كلمات وعنوانات براقة يقصد بهــا إلى صــرف الأنظار عن خصيصــة النبوة والرســالة التي ارتفع بها محمد ﷺ فوق ســمو الإنســانية وكمالهــا، وهذه الخصيصة هــي مناط عظمــة النبي والرســول، وليس مناط عظمته إنســانيته الســامية؛ لأن هذا قدر يمكن دعوى الاشــتراك فيه، لأنه مكسوب محصــل، وقــد أبــان الله -تعالى- في القــرآن الحكيــم عن فيصل التفرقة بين الكمال البشــري والكمال النبوي بما أفاد أن الكمال النبوي مرتبط بالوحي والرسالة، كما قال -تعالى-: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾. أمــا النبوة والرســالة فهــي هبة الخالق -عز شأنه- وإن كانت لا توهب إلا لمن كمل له السمو الإنساني، فهي معنى زائد فوق الســمو الإنســاني، به يفضل الأنبياء والمرســلون ســائر الإنســانيين الكملة، ولأمر ما وصف ابن الدغنة سيد القارة أبــا بكــر الصديق - رضي الله عنه - كمــا رواه البخاري - بما هو عين مــا وصفته خديجة أم المؤمنين -رضي الله عنها- محمدًا ﷺ وهي نعــوت وخلال كانت له ﷺ قبل نبوته ورســالته، أي إنها أوصاف إنسانية سامية تدل على الكمال في الإنسانية وإن صاحبها بمعزل عن الانتكاس فيما يخدش الكمال الإنساني.

كمال الإنسانية صفة بشرية قد يشترك فيها كثير من العباقرة والمصلحين:

فالإنسانية السامية لا تجعل صاحبها نبيًا ولا رسولاً، ولا تدل وحدها على أن صاحبها نبي أو رسول، ولكنها قد تجعله عبقريًا أو مصلحًا أو عظيمًا أو بطلاً، أو ما شئت من هذه النعوت التي هي أعلى ما تصل إليه الإنسانية من خصائص السمو المكسوب والكمال المفطور، ألا ترى أن محمدًا ﷺ في سمو إنسانيته قد اختاره الله لمرتبة من الكمال الروحي فوق هذا السمو الإنساني هي مرتبة النبوة والرسالة، وبقي الصديق في سموه الإنساني إنسانًا صديقًا أي إنسانًا كاملًا، لك أن تقول إنه عبقري أو مصلح أو عظيم وأنت مطمئن إلى أنك لم تنقص كماله الإنساني ولم تخدش إنسانيته السامية، ولكنك إذا قلت عن محمد -نبي الله ورسوله- إنه عبقري أو مصلح أو عظيم أو بطل وأنت تريد أن تضعه موضعه من الكمال الوجودي كنت مجحفًا بالحقيقة العليا في هذا الكمال، وهي حقيقة النبوة والرسالة التي يمتاز بها النبي والرسول عن سائر الكملة من بني الإنسان.

ومعاذ الله أن نقول إن إنسانية أبي بكر الصديق أو إنسانية إنسانٍ ما في الوجود، يمكن أن تكون في ميزان واحد مع إنسانية النبي والرسول، بله إنسانية خاتم النبيين محمد ﷺ. ولكنا أردنا إلى أن نقول: إن الصفات التي تواضع عليها

الناس وجعلوها صفات الإنسانية السامية قد تكون هي صفات العبقريين والقادة والمصلحين والأبطال والعظماء من البشر، وليست هي خصيصة إنسانية الأنبياء والرسل التي هي سر الاختيار ومناط الاصطفاء في قول الله -تعالى-:

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾

[الأنعام: ١٢٤]

فمحمد ﷺ قبل نبوته إنسان كامل، كانت حياته كلها إنسانية سامية، فهو عبقري ومصلح عظيم إلى ما شاكل ذلك من نعوت الكمال الإنساني الذي يفطر عليه أو يكسبه الإنسان بوصف إنسانيته، ولا ريب أن هذه النعوت ليست وقفًا على إنسان دون إنسان ممن أعدتهم الفطر لها، وإن كانت الأفراد تتفاوت في مقادير التكمل فيها، فالذين أعدهم الله من كملة الإنسانية لتلقي فيض النبوة أكمل وأسمى إنسانية ممن سواهم مع التفاوت فيما بينهم

﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾

[البقرة: ٢٥٣]

ومحمد ﷺ بعد نبوته نبي اصطفاه الله لرسالته ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وهذا معنى فوق السمو الإنساني، له مقومات خاصة يعجز عن اللحاق بها جميع العباقرة والقادة والمصلحين من غير الأنبياء والمرسلين، فلا مدخل لسمو إنسانية محمد ﷺ في نبوته ورسالته إلا بقدر أن هذا الكمال

الوهبي لا يجيء إلا فوق كمال فطري يزداد بالكسب والتحصيل واستقامة السلوك قبل مجيء النبوة والرسالة.

أما بعد مجيئها فالأمر أمرها، ولا مدخل للإنسانية السامية إلا على أنها قالب يصب فيه التدبير الإلهي الأعلى.

وأما قول منكري المعجزات الحسية: إن محمدًا ﷺ لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق، فهو إمعان في الإيهام المضلل لأن الأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة ليست مسألة كسبية يلجأ إليها الأنبياء ويحصِّلونها متى أرادوا وكيفما أرادوا، وإنما هي آيات الله يجريها على يد من يشاء من عباده الذين اصطفاهم لرسالته متى شاء وكيفما شاء.

ما ظهر من الآيات الحسية على يد النبي ﷺ:

وقد جعل الله بعضها برهانًا على صدق من أجراها على يده وأذن في التحدي بها كما يبينه قول الله -تعالى- بعد أن ذكر آية موسى -عليه السلام-:

﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾

[القصص: ٣٢]

وبعضها للتشريف والتكريم وتقرير الإيمان في نفوس بعض من تمر بهم لحظات من القلق النفسي؛ لتطمئن قلوبهم وتسكن وجداناتهم، كما في كثير من الآيات الكونية التي أوتيها نبينا محمد ﷺ، ولم يجعلها براهين على صدقه ولم يتحدَّ بها اكتفاء بالآية العظمى: القرآن العظيم، فمن ذلك ما رواه الترمذي عن

سمرة بن جندب قال: كنا مع رسول الله ﷺ نتداول في قصعة عن غدوة حتى الليل يقوم عشرة ويقعد عشرة، قلنا: فما كانت تُمَدُّ؟ قال: من أي شيء تعجب؟ ما كانت تمد إلا من هاهنا، وأشار بيده إلى السماء. وما رواه عن علي بن أبي طالب قال: كنت مع النبي ﷺ بمكة فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليكم يا رسول الله، وكحديث حنين الجذع الذي كان يخطب إليه النبي ﷺ، روى البخاري والترمذي - واللفظ له - عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ خطب إلى لزق جذع، واتخذوا له منبرًا فخطب عليه فحن الجذع حنين الناقة، فنزل النبي ﷺ فمسه فسكن. ومنه ما رواه الإمام البخاري من طريق مالك بن أنس عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك قال: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر والتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأتي رسول الله ﷺ بوضوء فوضع رسول الله ﷺ يده في ذلك الإناء وأمر الناس أن يتوضئوا منه، قال أنس: فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى توضئوا من عند آخرهم.

وقريب من هذا - وهو واضح في حكمة التأليف والترغيب - ما رواه البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين قال: كنا في سفر مع النبي ﷺ وذكر أنهم ناموا عن صلاة الصبح حتى علت الشمس، فارتحلوا ثم نزلوا فصلوا مع النبي ﷺ إلا أحدهم اعتزل فلم يُصَلّ فسأله النبي ﷺ: «ما منعك يا فلان أن تصلي مع القوم؟»

قـال : أصابتنـي جنابـة ، ولا مـاء ، فقـال : «عليك بالصعيـد فإنه يكفيك» ثم سـار النبي ﷺ فشـكى إليه الناس من العطش ، فنزل فدعـا عليًا وآخر معه وقال لهمـا : «اذهبا فابتغيـا الماء» فانطلقا فتلقيا امرأة بين مزادتين أو سطيحتين من ماء على بعير لها ، فقال لهـا : أيـن الماء ، قالت : عهـدي بالماء أمس هذه السـاعة ونفرنا خلوفًـا ، قـالا لها : انطلقي إذن ، قالت : إلى أين ؟ قالا : إلى رسـول الله ﷺ ، قالـت : الذي يقـال له الصابئ ، قالا : هـو الذي تعنين ، فانطلقت ، فجاءا بها إلى النبي ﷺ وحدثاه الحديث ، فاستنزلوها عن بعيرها ، ودعا النبي ﷺ بإناء ففرغ فيه من أفواه المزادتين أو السـطيحتين(١٣) وأوكأ أفواههما وأطلق العزالي(١٤) ، ونودي في الناس : اسـقوا واستقوا ، فسقى من شاء واسـتقى من شاء ، وكان آخـر ذاك أن أعطى الذي أصابتـه الجنابة إناء من ماء وقال : اذهب فأفرغه عليك ، وهي قائمة تنظر إلى ما يفعل بمائها ، وايم الله لقد أقلـع عنها وإنه ليخيل إلينا أنها أشـد ملأة منهـا حين ابتدأ فيها ، فقال النبي ﷺ : «اجمعوا لها» فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وسـويقة(١٥) حتى جمعوا لها طعامًا ، فجعلوها في ثوب وحملوها علـي بعيرها ووضعـوا الثوب بيـن يديها ، قال لهـا : «تعلمين ما

(١٣) المزادة وعاء يحمل فيه الماء في السفر كالقربة ونحوها والجمع مزاد(المجلة).

(١٤) العزلاء مصب الماء من القربة. والجمع عزالي وعزالى (المجلة).

(١٥) لعـل المراد بالدقيقة مدقوق الشعير المحمَّص. والسويق طعام يُتخذ من مدقوق الحنطة والشعير يخلط بالسمن أو الزيت، سُمي بذلك لانسياقه في الحلق (المجلة).

رزأنا من مائك شيئًا، ولكن الله هو الذي أسقانا» فأتت أهلها وقد احتبست عنهم، قالوا: ما حبسك يا فلانة؟ قالت: العجب، لقيني رجلان فذهبا بي إلى هذا الذي يقال له الصابئ، ففعل كذا وكذا، فوالله إنه لأسحر الناس من بين هذه وهذه - تعني السماء والأرض - أو إنه لرسول الله حقًا، فكان المسلمون بعد ذلك يغيرون على من حولها من المشركين ولا يصيبون الصِّرْم الذي هي منه(١٦)، فقالت يومًا لقومها: ما أرى أن هؤلاء القوم يدعونكم عمدًا، فهل لكم في الإسلام، فأطاعوها فدخلوا في الإسلام.

ففي هذه الآية العظيمة والأعجوبة المعجزة ما أدى إلى إدخال قوم بجملتهم إلى الإسلام دون أن يحتاجوا إلى شيء مما يصنع مع غيرهم في قبول الدعوة والتصديق بها.

كان في القرآن غناء عن التحدي بغيره من الآيات الحسية:

والحق أن نبينا محمدًا ﷺ كان في غنية بالقرآن الكريم - وهو معجزته الخالدة الغامرة القاهرة - عن التحدي بهذه الآيات الباهرات والأعاجيب المعجزات مع ثبوتها في جملتها ثبوتًا لا يشك فيه أهل الإيمان، لأنه لم يثبت بطريق قاطع أنه تحدى بحادث من هذه الحوادث العظيمة، فهي آيات تشريف له ﷺ وتنويه بذكره وآيات تكريم لذوي الصدق من أمته، وآيات تثبيت لبعض المؤمنين، وآيات ترغيب وتأليف لبعض من في قلوبهم استعداد

(١٦) الصِّرم الفرقة من الناس ليسوا بالكثير وجمعه أصرام (المجلة).

لقبول الهداية، ولكن عقولهم قد تقصر عن التعمق في فهم دلائل العقل ومرائي القرآن، فتجذبهم بعض هذه الآيات والأعاجيب إلى حظيرة الإيمان حتى تضيء عقولهم وأفئدتهم إلى ظل من الهداية ظليل. روى الترمذي عن ابن عباس قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: بم أعرف أنك نبي؟ قال: «إن دعوت هذا العِذْق من هذه النخلة أتشهد أني رسول الله؟» فدعاه رسول الله ﷺ فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي ﷺ، ثم قال: ارجع، فعاد، فأسلم الأعرابي. فهذا الأعرابي جاء إلى رسول الله ﷺ يطلب الإيمان والهداية، وهو على أعرابيته، ولا بد وأن يكون النبي ﷺ قد أدرك بما منحه الله من معرفة صادقة لخصائص النفوس البشرية أن هذا الرجل ليست لديه خصيصة التوجه إلى السمو المعنوي الذي امتاز به القرآن فكان مناط إعجازه، وإنما هو من ذوي الإحساس المادي والعقل المقيد بأغلال الحواس، فاقتضت الحكمة أن يجري معه على مقدار استعداده، فأجابه إلى ما طلب وأراه هذه الآية التي تجذبه برسن حواسه إلى التصديق(١٧)، فصدَّق وأسلم، وليس ذلك من التحدي بالمعجزة، ولكنه ترغيب وتأليف ورفع للأشواك من طريق السالكين المتوكئين على عصا الحس والمشاهدة، وهذا الأعرابي مثل لكثير من طوائف الناس وجماعاتهم في كل عصر وجيل.

---

(١٧) الرسَن الحبلُ والجمع أرسان. (المجلة)

إخبار أهل الكتاب ومُتحَنِّفَة العَرَب بمولد محمّد ﷺ وبعثته

من الأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة - التي تستند إلى روايات تاريخية صحيحة ترويها المصادر العالية من كتب الحديث والسنة ودواوين التاريخ، ويؤيدها القرآن الكريم بالإشارة إلى منابعها التي تُستقى منها - بشائرُ أهل الكتاب من اليهود والنصارى وإنباءاتهم بزمن مولده ﷺ ومبعثه، وبحثهم عن بلده وأسرته، وتعرُّف أخباره وأحواله والكشف عن أوصافه ونعوته اعتمادًا على ما ذكرته كتبهم المقدسة وتناقله أخلافهم عن أسلافهم من التنويه بذكره والتصريح باسمه ودلائل وجوده وتعيين بعض خصائصه، مما لا يُقْدِم على إنكاره إلا ممارٍ مكابرٍ أو معاند جاحد.

وقد كان لذلك من المدِّ والجزر في تيار الرسالة المحمدية ما سجله القرآن الحكيم في كثير من آياته البينات ففيهم نزل قوله -تعالى-:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾

(البقرة: ١٤٦)

فهم قبل أن يستبين لهم حظهم من رسالته كانوا يظهرون ما عندهم من دلائل وأمارات يعرفون بها أمر محمد ﷺ معرفة

لا يداخلها شك، ولما طغت عليهم نزغات البغي والحسد دفعتهم إلى كل خبيثة من خبائث الفجور والغدر، وكتمان ما علموا من الحق، وتحريف ما وجدوا من الآيات إلا من عصم الله من خيرتهم الذين استجابوا لله وللرسول.

وكان جهل العرب وشظف عيشهم مما مكن لليهود في حياتهم، فهم منذ نزلوا في جزيرة العرب وحلّوا بين أهلها مهاجرين استطاعوا أن يقبضوا على زمام الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية في يثرب، البلد الذي توطنوه مع أهله من الأوس والخزرج، والذي صار فيما بعد مهاجر رسول الله ﷺ ومركز الدعوة الإسلامية وعاصمة الخلافة الراشدة.

كانت مكة محطًا تجاريًا للقوافل الغادية والرائحة من الجنوب إلى الشمال، ومن الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق، وبهذا كانت أعظم أسواق العرب ومتاجرهم، يؤمها أكابر التجار الذين كانت لهم صلات تجارية ببلاد الشام في شمال الجزيرة وببلاد اليمن في جنوبها، وقد كان هذان القطران معترك الاستعمار الأجنبي من الفرس والرومان، يتغالبون عليه، فغلب الرومان على الشام وأدخلوا إليه المسيحية التي كانت نيران الحروب مستعرة فيما بينها وبين أشتات اليهودية القابعة في أرض الميعاد، فانتهز أمراء الرومان الحاقدين على اليهود لفسادهم في الأرض فرصة المسيحية - الدين الجديد الذين اعتنقوه - ليتخذوا منه سيفًا

يقضون به على أعدائهم الأقدمين من هؤلاء اليهود المتعصبين المفسدين، وأغرَوا بهم الشعب باسم الدين الجديد وهم من ورائه يمدونه بوسائل الاضطهاد والتعذيب والتقتيل حتى شعر اليهود أنهم في طريقهم إلى الفناء المحقق، فلم يجدوا بدا من الهجرة إلى مأوى بعيد يأوون إليه إبقاء على ما بقي لهم من أثر، فهاجروا إلى أبناء عمومتهم العرب، وكانت يثرب أقرب بلد وأنسبه في الجزيرة لهجرتهم، لما فيها من حياة الاستقرار ووسائلها الزراعية والصناعية، واستقرَّ بهم المقام بعيدًا عن مبعث الحماسة الدينية في مكة التي قد تُحرِّك عليهم شرًا أشد مما فروا منه، فحطوا بيثرب رحالهم وسرعان ما أصبحوا سادة الحياة الاقتصادية في هذا البلد العربي، وأصبح أهله أجراء عندهم وعمَّالاً لهم يعملون بأجور تسد منهم رمق الحياة.

حياة اليهود التجارية وصلتهم بمكة وتعاليهم بدينهم:

وكان من الطبيعي أن تهاجر عصبية اليهود الدينية معهم إلى يثرب لأنها جزء من حياتهم، وكان من الطبيعي أن يرحلوا بتجارتهم إلى مكة أعظم أسواق العرب، ويتخذوا منها متسوقًا لتجارتهم ويقيم بها بعضهم للمضاربة والمرابحة، وكان من الطبيعي ألاّ يتخلَّوا عن شعائر دينهم وأن يقيموها بين هؤلاء الوثنيين من العرب، وأن يتحدثوا إليهم حديثًا يهمز وثَنِيَّتهم في يسر، لا يهيجهم ولا يثيرهم ولكنه يتعالى عليهم في بعض الأمر بالتوحيد والنبوة المتوارثة في بني إسرائيل، وكان من

الطبيعي أن يُنْقَل عنهم هذا الحديث وأن يتسمع إليه كثير من الناس بين منكر ومتعجب ومفكر ومتأمل، وكان من الطبيعي أن تكون قريش في مكة هي أشد المتصلين باليهود الوافدين عليها للتجارة لمكانها التجاري والديني، وهما الأمران اللذان يعنيان اليهود حيثما حلُّوا، وإن كانوا أعنى بالناحية التجارية لجانبها المادي الذي يأخذ على اليهود مسالك الحياة فينظرون إليها أبدًا من زاويته، ولا يتحرزون أن يجعلوا الدين وسيلة من وسائله إذا رأوا ميزان الحياة المادية يطلب إليهم ذلك.

ومن المعروف أن رءوس تجار قريش كانوا من بني عبد مناف ثم من بني هاشم، وكان عبد المطلب جد رسول الله ﷺ سيد بني هاشم، فكان تجار اليهود في مكة يجاورونه ويحتمون بجاهه. قال ابن الأثير: وكان لعبد المطلب جار يهودي يقال له (أذينة) يتجر وله مال كثير، فغاظ ذلك حرب بن أمية ـ وكان نديم عبد المطلب ـ فأغرى به فتيانًا من قريش ليقتلوه ويأخذوا ماله، فقتله عامر بن عبد مناف ابن عبد الدار وصخر بن عمرو بن كعب التيمي، فلم يعرف عبد المطلب قاتله، فلم يزل يبحث حتى عرفهما وإذا هما قد استجارا بحرب بن أمية، فأتى حربًا ولامه وطلبهما منه فأخفاهما، فتغالظا في القول حتى تنافرا إلى النجاشي ثم إلى نفيل بن عبد العزى، فنفر عبد المطلب على حرب، فترك عبد

المطلب منادمة حرب وأخذ منه مائة ناقة فدفعها إلى ابن عم اليهودي وارتجع ماله إلاّ شيئًا هلك فغرمه من ماله.

وقد أخذت قريش عن عملائها من تجار اليهود بعض ذرائعهم في التكسب والتجارة، فشاعت فيهم المعاملات الربوية والمضاربات الفاحشة، ولكنهم تحاموا أن يسمعوا لهم في أمر الدين لأنهم في وثنيتهم البليدة لا تتحرك عواطفهم إلى أمر الدين إلا من طريق عقائدهم التي تضمن لهم السيادة والشرف في حرمهم، روى ابن كثير أن أمية بن أبي الصلت قال في بعض أسفاره لأبي سفيان بن حرب: هل لك يا أبا سفيان في عالم من علماء النصارى إليه يتناهى علم الكتاب نسأله؟ قال أبو سفيان: قلت: لا أرى لي فيه، والله لئن حدثني بما أحب لا أثق به، ولئن حدثني بما أكره لأجدنَّ منه، فذهب أمية وخالفه شيخٌ من النصارى فدخل عليّ، فقال: ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ؟ قلت: لست على دينه، قال: وإن، فإنك تسمع منه عجبًا وتراه، ثم قال لي: أثقفي أنت؟ قلت: لا، ولكن قرشي، قال: فما يمنعك من الشيخ فوالله إنه ليحبكم ويوصي بكم.

الاستشراف إلى ظهور نبي أظل زمانه:

لكن نفرًا قليلاً من متحنفة العرب أضراب ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو، وأمية بن أبي الصلت، وقس بن ساعدة، وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش، والجارود بن

المعلّـى، كانوا بفطرتهم وبما يلقفونـه من أفواه أهل الكتاب يتطلعون إلى السـماء وينكرون بعقولهم وبما معهم من العلم ما عليه قومهم من سـخافات وثنية، فكان قُسّ يقف بالأسواق والمجامـع فيقـول: أيها النـاس، إن لله دينًا هـو أحب إليه من دينكـم هذا الـذي أنتم عليه، وكان زيد يقول لقريش: الشـاة خلقهـا الله، وأنـزل لها من السـماء ماء وأنبـت لها من الأرض الـكلأ، ثـم تذبحونها على غير اسـم الله. وكانوا إذا سـمعوا حديـث النبـوة والوحـي والتوحيد اشـرأبّت أنفسـهم لتروي ظمأهـا الروحي فـي أرض قاحلة مـن الري العقلـي مجدبة من الغذاء السـماوي، ولكن اليهود قوم متزمتون أشد التزمت في ديانتهم متعصبون أشـد التعصـب ليهوديتهم لا يعنيهم إلا أن تبقـى لهم، فيبقى لهم سـلطانها وتراثها، فهم المنفردون في حياة أهـل الديانات الذين لم يسـعوا لنشـر ديانتهم والدعوة إليهـا ولو واتتهم ألف فرصـة وفرصة، فلم يعبئـوا لهذا النفر المتعطـش إلى التوحيـد ليدخلوه في حظيـرة ديانتهم، فبقي علـى فطرتـه منهم فريق يتطلع ويترقب ويسـمع، وسـاح في الأرض منهـم فريق فلقيتـه النصرانية الداعية لنفسـها فعرف منهـا وأنكر، وهجم فريـق فادّرعها وتوقف فريـق حتى وافاه الأجل، وكما غلبت المسيحية على يد الرومان اليهود بالشام فدفعتهم إلى الهجرة والاستقرار ببلاد العرب، غلبتهم على يد الحبشـة باليمن، ولكنها هنا أفنتهم واستقرت مكانهم، حتى

سلط الله عليها الفرس فشتتوا شملها، وطاردوا أهلها فانزوى جمعهم بنجران حتى أدركهم الإسلام.

لـم يكن للنصارى من الأثر في الجزيرة العربية مثل ما كان لليهود، لأن هؤلاء كانوا علـى اتصال بالحياة العملية المادية فـي التجـارة والزراعة والصناعـة بقدر ما تسـمح به تصاريف الحياة، وهذا الاتصال كان أداة فعالة في تأثيرهم والأخذ عنهم والاسـتماع إليهم، فانتشـر عنهـم دون قصد منهم شـيء عن ديانتهم ولا سيما فيما كانوا يترقبونه من أحداث كونية أخبرت عنهـا كتبهم، وبشـارات بنبي يبعـث تحدَّث بها أسـلافهم، وأمارات ونعوت لهذا النبي روتها أسفارهم، فلما أظلَّهم زمانه أفصحـوا عن مكنون أنفسـهم، وأخبروا بـه علانية، وتناقلت أخبارَه الألسـنةُ حتى وصـل الأمر إلى المتحنفيـن والمعتافين والكهان، وذاعت القصـص والأحاديث، فكان منها الصحيح الثابت، ومنها الضعيف الواهن، ومنها المكذوب الباطل.

أمـا النصـارى فكانـوا على عكـس إخوانهم اليهـود، فإذا كان فـي اليهـود تزمت يرقـى إلى الجمود في الدعـوة الدينية ففـي النصارى بحبحة واتسـاع، يدعون إلى دينهم ويبشـرون به ويرغبون في إدخاله على من اسـتطاعوا من جماعات الناس وإدخال من اسـتطاعوا إدخالهم في حظيرته، بيد أنهم معتزلة منـزوون في حياتهـم العملية المادية، ولا شـك أن أثر الحياة العملية أقوى في تجاوب الأفكار والنحل.

كانت النصرانية أخفت صوتًا في بلاد العرب من اليهودية:

ومـن هنـا كان صـوت النصرانية فـي بلاد العـرب أخفت من صـوت اليهوديـة، وكان النصـارى فيها أضعف شـأنًا من اليهـود، ولكن ذلك لم يمنع أن تمشـي المسـيحية إلى بعض القلوب والأفكار، فدان بها بعض المتحنفين كقس بن ساعدة وورقـة بن نوفل، وتحدثـوا بمثل ما كان يتحدث به اليهود من البشـارات والأمارات والنعوت التي ذكرتها كتبهم المقدسـة ورواهـا رهبانهـم وقسيسـوهم، وكثرت القصـص والأخبار، فكان منها الثابت القوي، ومنها الزائف الضعيف.

علـى هذا الأسـاس قام هذا اللـون من الروايـات والقصص التي تحتل جانبًا من السـيرة النبوية متصلة بأسرة محمد ﷺ، ومتصلة بحمله وميلاده ومتصلة بحياته طفلاً وشابًا، ومتصلة به نبيًا ورسـولاً، وهنـا يتحول هذا اللون إلـى ذلك العنف في الجـدل والحجاج ويتحـول إلى ذلك العنف فـي الحياة، وهنا عنـي به القـرآن الكريم فقصَّ في شـأن اليهـود كثيرًا وحكى من شـأن النصارى كثيرًا، وذكر في صراحـة قاطعة أن محمدًا ﷺ مكتـوب في كتبهم بأخص أوصافـه، وأنهم يجدونه فيها باسمه (أحمد) ويجدون أصول رسالته ودعائم شريعته، وفي ذلـك يقول القرآن الكريم واصفًا للمتقين الذين كتب لهم الله رحمته:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ

مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ (الأعراف: ١٥٧)

نص صريح من التوراة بأن محمدًا ﷺ هو المبشر به:

فالنبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل هو محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي سليل إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، واليهود والنصارى يعلمون هذا علم اليقين، والقرآن جبههم بقوله:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۘ﴾

ولا تزال أسفارهم بعد ما أحلُّوا بها من التحريف والتبديل تحمل بعض هذه البشارات التي يسلطون عليها فاسد التأويل، وأنت تستطيع أن تأخذ إليك سفر التثنية من أسفار التوراة فتجد فيه هذا النص: «أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به» فأخوة بني إسرائيل هم العرب لأن جدهما إبراهيم عليه السلام، هذا إجماع تاريخي منا ومنهم ومن جميع أهل التاريخ في أرض الله فلا سبيل للشك فيه، ووسط العرب هم قريش ووسط قريش هاشم كما ورد في صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى

قريشًا من كنانة، واصطفى هاشمًا من قريش، واصطفاني من بني هاشم» ولم يجئ نبي بعد موسى -عليه السلام- بشريعة كاملة جامعة بين العقيدة والتشريع مستقلة غير محمد ﷺ، فهو النبي المماثل لموسى الذي خوطب بهذا النص، ولا معنى للأخوة لو كان هذا النبي الموعود من بني إسرائيل كما يزعم المحرِّفون، لأنه حينئذ يكون من أنفسهم لا من إخوتهم، وجعْلُ كلام الله في فمه كنايةٌ عن عدم تعاطي الكتابة والاعتماد على الحفظ والتلاوة، وهو معنى الأمية التي هي أخص أوصاف محمد رسول الله ﷺ ويقول الله -تعالى- من سورة الصف:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾

(الصف: ٦)

وهذا نص صريح قاطع في أن عيسى -عليه السلام- بشر قومه برسالة رسول يجيء بعده اسمه أحمد، ولم يزعم أحد قط أن اسم أحمد سمي به رسول جاء بعد عيسى -عليه السلام- غير خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ.

علم أهل الكتاب برسالة محمد ﷺ كان حجة على المشركين:

وكما كانت هذه البشارات قائمة على نصوص قاطعة صريحة في التوراة والإنجيل يعلمها أتباعهما علمًا يقينًا،

جعل الله هذا العلم آية على صدق محمد ﷺ في رسالته فقال -تعالى-:

﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ (الشعراء: ١٩٧)

فكان علم أهل الكتاب بصدق رسالة محمد لوجود نعته واسمه في كتبهم آية للمشركين على إثبات رسالته.

ومن هنا كانت الإنباءات التي ترويها المصادر المعتبرة بروايات صحيحة عن بعض الأحبار والرهبان، وما نقله عنهم المتحنفة والمعتافون عن زمن ميلاد النبي ﷺ وعن نعته وبعض خصائصه واسمه وبلده وبعثه ومهجره وما يلقى من قومه وما يتم به أمره، من قبيل الآيات والأعاجيب التي أشار إليها القرآن وتأيدت بروايات صحيحة، فهي من الآيات التي لا ترد ولا يتسلط عليها التأويل، ويجري مجراها ما ماثلها من الأخبار التي صاحبت حياة النبي ﷺ في أطواره المتعددة ولا سيما بعد البعثة، ذلك الوقت الذي تنبهت فيه عند اليهود حاسة المحافظة على البقاء نتيجة لتنبه الوعي القومي عند أصحاب الوطن الأصلاء من عرب الأوس والخزرج الذين استغلهم اليهود واستغلوا وطنهم استغلالاً اقتصاديًا أنزلوهم فيه منزلة التابع الأجير، فلما لم يُجْدِهم إيقاد نيران الفتن بينهم والسعي بالإفساد أرادوا أن يستغلوا هذه الظاهرة الدينية التي يتفوقون بها، ظاهرة الإخبار عن نبي يبعث وأن زمانه قد

اقترب وأنــه يدعو إلى التوحيد، ويحــارب الوثنية والوثنيين، وأنهــم ينتظرونــه ليؤمنــوا به ويكونــوا في صفــه ويكون في صفهــم إلبًا على هؤلاء العرب الوثنيين يقتلونهم معه، وبدءوا ينشرون هذه البشارات ويذيعون أخبار النبي ﷺ.

شــواهد من كتب الســنة عن استبشــار أهل الكتاب بالنبي عليه السلام:

روى البيهقي وأبو نعيم عن حسان بن ثابت قال: إني لَغُلام ابن ســبع ســنين أو ثمان أعقل ما رأيت وســمعت إذا بيهودي يصرخ ذات غداة: يا معشــر يهود، فاجتَمعوا إليه ـ وأنا أسمع ـ فقالــوا: ويلك مالك؟ قال: قد طلع نجم أحمد الذي يولد به في هذه الليلة.

وروى الحافظ أبو نعيم في دلائل النبوة عن مالك بن ســنان قال: جئت بني عبد الأشــهل يومًا لأتحدث فيهم ونحن يومئذ في هدنة من الحرب، فســمعت يوشــع اليهــودي يقول: أظلَّ خــروج نبــي يقال له أحمد يخــرج من الحرم، فقــال له خليفة ابن ثعلبة الأشــهلي كالمســتهزئ بــه: ما صفتــه؟ فقال رجل ليــس بالقصير ولا بالطويل، في عينيه حمرة، يلبس الشــملة ويركب البعير[١٨]، ســيفه على عاتقه، وهــذا البلد مهاجره، قــال مالك: فرجعــت إلى قومي بني خُدْرة وأنــا يومئذ أتعجب

(١٨) الشملة إزار من صوف أو شعر. (المجلة).

مما يقول يوشع، فأسمع رجلاً منا يقول: ويوشع يقول هذا وحده؟ كل يهود يثرب يقولون هذا!!. قال مالك بن سنان: فخرجت حتى جئت بني قريظة فأجد جمعًا فتذاكروا النبي ﷺ فقال الزبير بن باطا: قد طلع الكوكب الأحمر الذي لم يطلع إلا لخروج نبي أو ظهوره، ولم يبق أحد إلا أحمد وهذا مهاجره.

وروى ابن سعد عن عائشة أم المؤمنين بسند حسَّنه الحافظ ابن حجر في شرح البخاري أنها قالت: كان يهودي قد سكن مكة، فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ قال: يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود؟ قالوا: لا نعلم، قال: انظروا فإنه ولد في هذه الليلة نبي هذه الأمة أحمد الآخر، بين كتفيه علامة، فانصرفوا فسألوا، فقيل لهم: ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام فسماه جده محمَّدًا، فالتقوا بعدُ من يومهم فأتوا اليهودي في منزله، فقالوا علمنا أنه ولد فينا مولود؟ قال: أبعد خبري أم قبله؟ قالوا: بل قبله، قال: فاذهبوا بنا إليه فخرجوا معه حتى دخلوا على أمه، فأخرجته إليهم فرأى الشامة في ظهره، فغشي على اليهودي ثم أفاق فقالوا ويلك ما لك؟ قال: ذهبت النبوة من بني إسرائيل وخرج الكتاب من أيديهم، وهذا مكتوب، يقتلهم ويبز أحبارهم، فازت العرب بالنبوة، أفرحتم يا معشر قريش، أما والله ليسْطُوَنَّ بكم سطوة يخرج نبؤها من المشرق إلى المغرب.

وروى أيضًا عن عامر بن ربيعة قال: سمعت زيد بن عمرو ابن نفيل، يقول: أنا أنتظر نبيًا من ولد إسماعيل ثم من بني عبد المطلب ولا أراني أدركه، وأنا أؤمن به وأصدقه وأشهد أنه نبي، فإن طالت بك مدة فرأيته فأقرئه مني السلام، وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك، قلت: هلمّ، قال: هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير، ولا بكثير الشعر ولا بقليله، وليست تفارق عينيه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه، واسمه أحمد، وهذا البلد مولده ومبعثه، ثم يخرجه قومه منها، ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره، فإياك أن تخدع عنه فإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم فكل من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون هذا الدين وراءك، وينعتونه بما نَعَتُّهُ لك ويقولون: لم يبق نبي غيره، قال عامر: فلما أسلمت أخبرت رسول الله ﷺ قول زيد بن عمرو وأقرأته منه السلام، فرد عليه السلام ورحّم عليه وقال: «قد رأيته في الجنة يسحب ذيولاً».

وروى الطبراني والبيهقي في محادثة طويلة بين أمية بن أبي الصلت وأبي سفيان بن حرب، قال أمية: جئت هذا العالِم (راهبًا نصرانيًا) فسألته عن أشياء، ثم قلت: أخبرني عن هذا النبي الذي ينتظر، قال: هو رجل من العرب، قلت قد علمت أنه من العرب، فمن أي العرب هو؟ قال: من أهل بيت تحجه العرب، قلت: وفينا بيت تحجه العرب، قال: هو من

إخوتكم من قريش، فأصابني والله شيء ما أصابني مثله قط، وخرج من يدي فوزُ الدنيا والآخرة وكنت أرجو أن أكون إياه، قال أبو سفيان فإذا كان ما كان فصفه لي، قال: رجل شاب حين دخل في الكهولة، بدو أمره يجتنب المظالم والمحارم، ويصل الرحم، ويأمر بصلتها، وهو مُحْوَجٌ كريم الطرفين، متوسط في العشيرة، أكثر جنده من الملائكة. قال أبو سفيان: فقدمنا مكة فقضيت ما كان معي، ثم انطلقت حتى جئت اليمن تاجرًا، فكنت بها خمسة أشهر ثم قدمت مكة، فبينا أنا في منزلي جاءني الناس يسلِّمون عليّ، ويسألون عن بضائعهم حتى جاءني محمد بن عبد الله وهند عندي تلاعب صبيانها، فسلَّم عليّ ورحَّب بي، وسألني عن سفري ومقامي ولم يسألني عن بضاعته، ثم قام، فقلت لهند: والله إن هذا ليعجبني، ما من أحد من قريش له معي بضاعة إلا وقد سألني عنها وما سألني هذا عن بضاعته، فقالت لي هند: أَوَمَا علمت شأنه؟ فقلت وأنا فزع: ما شأنه؟ قالت: يزعم أنه رسول الله، فوقذتني وتذكرت قول النصراني، فرجفت حتى قالت لي هند: مالك؟ فانتبهت، فقلت: إن هذا لهو الباطل، لهو أعقل من أن يقول هذا، قالت: بلي والله إنه ليقولنَّ ذلك ويدعو إليه، وإن له لصحابة على دينه، فقلت: هذا هو الباطل.

قال: وخرجت فبينا أنا أطوف بالبيت إذ بي قد لقيته فقلت له: إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا وكان فيها خير، فأرسل

من يأخذها ولست بآخذ منك فيها ما آخذ من قومي، فأبى عليّ، وقال: إذن لا آخذها، قلت، فأرسل فخذها وأنا آخذ منك مثل ما آخذ من قومي، فأرسل إليّ بضاعته فأخذها وأخذت منه ما كنت آخذ من غيره. قال أبو سفيان: فلم أنشب أن خرجت إلى اليمن، ثم قدمت الطائف فنزلت على أمية بن أبي الصلت، فقال لي: يا أبا سفيان. قلت: ما تشاء؟ قال: هل تذكر قول النصراني؟ قلت: أذكره، وقد كان، فقال: ومن؟ قلت: محمد بن عبد الله، قال: ابن عبد المطلب؟ قلت: ابن عبد المطلب، ثم قصصت عليه خبر هند، قال: الله يعلم وأخذ يتصبب عرقًا، ثم قال: يا أبا سفيان لعلّه؟ صفته لهي، ولئن ظهر وأنا حي لأطلبنَّ من الله عز وجل في نصره عذرًا، قال أبو سفيان: ومضيت إلى اليمن فلم أنشب أن جاءني هنالك استهلاله، وأقبلت حتى نزلت على أمية بن أبي الصلت بالطائف، فقلت: يا أبا عثمان قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعته، فقال: قد كان لعمري، فقلت: فأين أنت منه يا أبا عثمان؟ فقال: والله ما كنت لأؤمن برسول من غير ثقيف أبدًا، قال أبو سفيان: وأقبلت إلى مكة، فوالله ما أنا ببعيد حتى جئت مكة فوجدت أصحابه يُضربون ويحقَّرون، فجعلت أقول: فأين جنده من الملائكة؟ فدخلني ما يدخل الناس من النِّفاسة(١٩).

وكان النبي ﷺ يذكر أمية بن أبي الصلت ويستنشد شعره

(١٩) النِّفاسة: الحسد. (المجلة)

لما فيه من دلائل التوحيد والثناء على الله -تعالى- .

روى مسلم والإمام أحمد عن عمر بن الشريد عن أبيه قال : كنت ردفًا لرسول الله ﷺ فقال لي : «أمعك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء ؟» قلت نعم، قال : فأنشدني، فأنشدته بيتًا، فلم يزل يقول لي كلما أنشدته بيتًا : «إيه» حتى أنشدته مائة بيت، ثم قال رسول الله ﷺ : «إن كاد يسلم» .

ويحدثنا ابن سعد في طبقاته عن بعض الأنصار أن يهود بني قريظة كانوا يدرسون ذكر رسول الله ﷺ في كتبهم ويعلِّمونه الولدان بصفته واسمه ومهاجره إلينا، فلما ظهر رسول الله ﷺ حسدوا وبغوا وقالوا : ليس به.

وكان المشركون يَرون أن أهل الكتاب أعلم بهذا الشأن فكانوا يسألونهم، وكان هؤلاء يخبرون بما عندهم، روى ابن سعد عن ابن عباس قال : بعثت قريش النضر بن الحارث بن علقمة، وعقبة بن أبي مُعَيط وغيرهما إلى يهود يثرب. وقالوا لهم : سلوهم عن محمد، فقدموا المدينة فقالوا : أتيناكم لأمر حدث فينا، منا غلام يتيم فقير يقول قولاً عظيمًا، يزعم أنه رسول الرحمن، ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، قالوا : صفوا لنا صفته، فوصفوه لهم، قالوا : فمن تبعه منكم؟ قالوا : سفلتنا، فضحك حبر منهم، وقال : هذا النبي الذي نجد نعته ونجد قومه أشد الناس له عداوة.

وقال ابن إسحاق : وكانت الأحبار من يهود، والرهبان من

النصارى، والكهّان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لَّما تقارب من زمانه، أما الأحبار من يهود والرهبان من النصارى فعما وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه.

ثم بيَّن ابن إسحاق عن جماعة من الأنصار ما كان يتحدث به يهود يثرب عن رسول الله ﷺ وسبب بغيهم وحسدهم وإنكارهم ما كانوا يعلنونه ويتدارسونه من ذكره، فقال: وحدثني عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا: إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه ما كنا نسمع من رجال يهود، كنَّا أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيرًا ما نسمع منهم ذلك، فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبنا حين دعانا إلى الله -تعالى- وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت هذه الآيات من البقرة:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

(البقرة: ٨٩).

هذا قليل من كثير من الروايات التي روتها كتب الدلائل النبوية، وروتها بعض كتب الحديث والسنة، وقد اخترنا منها، وتحرينا ما وسعنا التحري أن نتحاشى الروايات التي يدخلها التزيد ويحيكها الخيال، فليس من الإنصاف التاريخي أن تهدر هذه الكثرة الغامرة من الروايات في هذا الجانب من السيرة النبوية تحت تأثير الإيهام بمعروف العقول وقضايا العلم وحكم المنطق ومتعارف سنن الحياة، وقد فرغنا من مناقشة هذا الإيهام في صدر بحث الأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة، وأقمنا بذلك أصلاً نرد إليه ما يعرض في طريق البحث منه.

مُحَمَّد ﷺ في المهد

رضاعه عليه السلام:

كان لموت عبد الله بن عبد المطلب - أبي محمد ﷺ - في رحلته التي خرج إليها تاجرًا وهو في مقتبل شبابه بُعَيْدَ حادث الذبح وبنائه بزوجه آمنة بنت وهب أم محمد ﷺ ؛ أثر من الحزن الفادح والألم الممض على نفس أبيه الشيخ، الذي أفنت السنون جَلَده وناء بأثقالها، فلما بُشِّر بميلاد حفيده محمد ﷺ صبّ به صبابته بأبيه من قبله - وكان أبو محمد ﷺ عبد الله أحبَّ أبناء عبد المطلب إليه - وحظي محمد ﷺ عند جده حظوة لم تكن لأحد من ولده، فأخذه من مهده بين يديه وطاف به حول الكعبة يباركه ويدعو له، ويستعذب النظر إليه في حنان الأبوة الثاكلة، ثم رده إلى أمه وعاد إلى مكانه في ظل البنيَّة المقدسة يفكر ويقدر، ويطلب له المراضع في نساء البوادي على عادة سكان المدن والقرى من العرب في استرضاع أولادهم في البادية اتقاء لِوخامة المدن ووضر الحواضر، وتخريجًا في التعرب والتفاصح، وانتجاعًا لجو البادية صحة، وانطلاقًا مع مظاهر الطبيعة في الأرض والسماء. وكانت المرضعات يردن مكة في المواسم تطلبًا للرُّضع الذين يؤملن فيهم جِدَةً وسِعَةً من العطاء، وكان في قبائل العرب وبيوتاتهم بيوت وقبائل عُرفت بخصب الدر ونقاء الجو وصفاء الطبيعة وفصاحة اللهجة ونصاعة البيان

ونقاء المربى. منهم بنو سعد بن بكر من قبيلة هوازن المعروفة بتعربها وفصاحتها، فلما ورد نساؤها مكة عُرض عليهن فيمن عرض من الرُّضع محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، فأقبلـنَ على غيره، وأعرضن عنه، لأنهن عرفنَ أنه يتيم، وكنَّ يرتجيـن وسـيع العطايا وغامر المنح من آبـاء الأطفال، وكان في نسـاء بني سـعد السـيدة حليمة بنت عبد الله بن الحارث، ويظهـر أنها كانت أرقَّهنَّ حالاً، فلم يرغـب فيها آباء الأطفال وذووهم، وأصاب صواحباتها طِلْبَتَهُن من الرضع وبقي محمد ﷺ بغيـر مرضع، وبقيت حليمة بغيـر رضيع، وعرض عليها فجعلت تقول: يتيم ولا مال له، وما عَسَتْ أمه أن تفعل.

حظ حليمة في سعادتها ترويه قصتها:

وهنـا نترك الروايـة التاريخية تحدثنا على لسـان حليمة بما اتفـق عليـه الـرواة أو قريب منه. روى ابن إسـحاق بسـنده عن جعفـر بن أبي طالب قال: حُدّثت عـن حليمة بنت الحارث أنها قالت: قدمتُ مكة في نسـوة من بني سـعد نلتمس بها الرضعاء في سـنة شـهباء[٢٠]، فقدمـتُ على أتـان لي قمـراء[٢١] كانت

(٢٠) سنة شهباء: لا خضرة أو لا مطر بها، والمراد أنها جدباء لندرة الخصب فيها.
(٢١) أتان قمراء: هو من القمرة: لون إلى الخضرة أو بياض تشوبه كدرة.

أذمَّت(٢٢) بالركب، ومعي صبي لنا وشارف(٢٣) لنا والله ما تبض بقطرة(٢٤)، وما ننام ليلتنا أجمع من صبينا ذاك، ما نجد في ثديي ما يغنيه ولا في شارفنا ما يغذّيه، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك، فلقد أذمَّت بالركب حتى شقَّ ذلك عليهم ضعفًا وعجفًا، فقدمنا مكة، فوالله ما علمتُ منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل إنه يتيم تركناه، قلنا: ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه؟ إنما نرجو المعروف من أبي الولد، فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا؟ فوالله ما بقي من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما لم نجد غيره وأجمعنا الانطلاق قلت لزوجي الحارث بن عبد العزى: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع، لأنطلقنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنه، فقال: لا عليك أن تفعلي فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة، فذهبتُ فأخذته فوالله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره، فما هو إلا أن أخذته فجئت به رحلي فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن فشرب حتى روي، وشرب أخوه (ولدها) حتى روي، وقام صاحبي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل(٢٥)، فحلب ما شرب وشربت حتى روينا، فبتنا بخير ليلة، فقال صاحبي

(٢٢) أذمت بالركب، حبستهم لإعيائها وانقطاع سيرها. قال في اللسان: وفي حديث حليمة السعدية: فخرجت على أتاني تلك فلقد أذمت بالركب أي حبستهم لانقطاع سيرها.

(٢٣) الشارف: الناقة المسنة الهرمة.

(٢٤) هو من قولهم بض الماء يبض إذا سال قليلاً.

(٢٥) حافل: ممتلئ ضرعها لبنًا. (المجلة).

حين أصبحنا : يا حلمية والله إني لأراك قد أخذت نسمة مباركة ، ألم تري ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه ، فلم يزل الله -تعالى- يزيدنا خيرًا ، ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا فوالله لقطعت أتاني بالركب حتى ما يتعلق بها حمار ، حتى إن صواحبي ليقلنَ ويلك يا بنت أبي ذؤيب هذه أتانك التي خرجت عليها معنا ؟ ! فأقول : نعم والله إنها لهي ، فقلن والله إن لها شأنًا حتى قدمنا أرض بني سعد وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها ، فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعًا لُبَّنًا فنحلب ما شئنا وما حوالينا أحد تبضُّ له شاة بقطرة لبن ، وإن أغنامهم لتروح جياعًا حتى إنهم ليقولون لرعاتهم ويحكم انظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب فاسرحوا معهم ، فيسرحون مع غنمي حيث تسرح فتروح أغنامهم جياعًا ما فيها قطرة لبن ، وتروح أغنامي شباعًا لُبَّنًا نحلب ما شئنا ، فلم يزل الله يرينا البركة نتعرفها حتى بلغ سنتين ، فكان يشب شبابًا لا يشبّه الغلمان ، فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلامًا جَفْرًا(٢٦) ، فقدمنا به على أمه ونحن أضنّ شيء به مما رأينا فيه من البركة ، فلما رأته أمه قلت لها : دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى فإنا نخشى عليه وباء مكة ، فوالله ما زلنا بها حتى قالت : نعم ، فأقمنا به شهرين أو ثلاثة .

---

(٢٦) الجفر: الذي استغنى عن الرضاع وقوي على الأكل.

رواية ابن سعد في الطبقات والتوفيق بينها وبين رواية ابن إسحاق:

وفي رواية ابن سعد أن أمه آمنة هي التي طلبت رده معهم خشية عليه من وباء مكة، ويظهر أنه ليس بين الروايتين اختلاف حقيقي؛ لاحتمال أن تكون حليمة قدمت به على أمه زائرة فرأت صبابة أمه به، فخافت أن تحبسه عنها وقد استوفى أقصى أمد الرضاع، فعجَّلت بطلب رده معها لتطمئن، فوجدت من أمه رغبة في رده معهم. قال ابن سعد: قال محمد ابن عمر الواقدي عن أصحابه: مكث عندهم سنتين حتى فطم وكأنه ابن أربع سنين، فقدموا به على أمه زائرين لها، وأخبرتها حليمة خبره وما رأوا من بركته فقالت آمنة: ارجعي بابني فإني أخاف عليه وباء مكة، فوالله ليكوننَّ له شأن، فرجعت به.

وحكى ابن كثير رواية فيها غرابة قال: ذُكر أنَّ عبد المطلب أمر ابنه عبد الله أن يأخذه فيطوف به في أحياء العرب ليتخذ له مرضعة فطاف حتى استأجر حليمة على رضاعه، وأقام عندها ست سنين تزيره جده في كل عام.

وغرابة هذه الرواية لما فيها من أن أبا رسول الله ﷺ كان موجودًا حين ميلاده، وأنه هو الذي استرضعه في بني سعد واستأجر له حليمة، وهي رواية لا تتفق إلا مع رواية أن أباه

عاش حتى بلغ رسول الله ﷺ من عمره سبعة أشهر أو ثمانية وعشرين شهرًا على ما ذكرناه سابقًا، وهما روايتان ضعيفتان، والرواية الثانية أن أباه توفي وهو جنين في بطن أمه، وهو قول الجمهور من المؤرخين ومؤلفي السيرة.

وذكر ابن سعد وغيره أن ظئره حليمة رأت بعد أن رجعت به إلى باديتها - وكانت لا تدعه يذهب بعيدًا عنها - غمامة تظله، إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت فأفزعها ذلك من أمره، فقدمت به على أمه لترده إليها وهو ابن خمس سنين فأضلَّها في الناس، فالتمسته فلم تجده فأتت عبد المطلب فأخبرته، فالتمسه عبد المطلب فلم يجده وجعل ينشده بأبيات من الشعر، فوجده ورقة بن نوفل ورجل آخر من قريش، فأتيا به جده فأخذه على عاتقه وذهب فطاف به يعوِّذه ويدعو له ثم رده إلى أمه آمنة.

وذكر ابن سعد أيضًا أن جماعة من اليهود مروا على ظئره حليمة وكانت أمه آمنة قد أخبرتها ببعض شأنه وأوصتها بحفظه والحرص عليه - فقالت لهم: ألا تحدِّثوني عن ابني هذا، فإني حملته كذا، ووضعته كذا ورأيت كذا - كما وصفت أمه - فقال بعضهم لبعض: اقتلوه، فقالوا: أيتيم هو؟ فقالت حليمة: لا، هذا أبوه وأنا أمه، فقالوا: لو كان يتيمًا لقتلناه، فذهبت به حليمة وقالت: كدت أخرِّب أمانتي..

وكان عمه حمزة مسترضعًا معه في بني سعد عند امرأة أخرى غير ظئر رسول الله ﷺ، قال ابن سعد: كان حمزة

ابــن عبــد المطلب رضيع رســول الله ﷺ ، أرضعتهما امرأة من العــرب ، كان حمزة مســترضعًا لــه عند قوم من بني ســعد بن بكــر ، وكانت أم حمــزة قد أرضعت رســول الله ﷺ يومًا وهو عند أمه حليمة . وقد ســبق أن ثويبة جارية أبي لهب أرضعتهما وأبا ســلمة ، فهما أخوا رســول الله ﷺ من الرضاع بلبن ثويبة ويزيد حمزة لبن السعدية .

هــذه هي قصة رضاعــه ﷺ في جملة رواياتهــا التي ترويها كتــب الســيرة ، ولا يــكاد كتــاب منهــا يخلو عن طــرف من أطرافهــا ، حتى قال ابــن كثير في تاريخه بعــد أن روى حديث ابن إسحاق الذي صدَّرنا به ـ وهو أجمعها وأوفاها وعليه معول جمهرة المؤرخين ـ: وهذا الحديث قد رُوي من طرق أُخَر ، وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازي .

تحقيق ينفي الشك في قبول هذه الروايات:

وليس في القصة على النهج الذي سقناها فيه ما يباعد بينها وبين الواقع التاريخي ، فاســترضاع الســادة من أهل الحواضر والمدن أبناءهم في البوادي ، ووفود نساء البادية لأخذ الرُضَّع ، يرتجين الخير وسعة العطاء من آبائهم ، وإحجامهن عن يتيم لم يعــرف ثراؤه ، واندفاع حليمة إلى أخذه بعد أن لم تجد رضيعًا غيره ترجــع به مع صواحباتها ، وظهــور البركة في دار حليمة وغنيماتها وشــارفها ، وشــبابه شــبابًا ممتازًا في صحته ونموه عن لداته وأقرانه من الأطفال والغلمان ، ورده إلى أمه لزيارتها ،

وحرص ظئره على بقائه عندها لما رأت فيه من البركة والخير ، وحرص أمه على ردِّه مع ظئره إلى البادية خشـية عليه من وباء مكـة التي تغص فـي المواسـم بالوافدين عليها مـن الأصحاء والمرضى ، وعناية أهل الكتاب من اليهود بشأنه وتطلُّبهم له ، وحـرص ظئره حليمة على تعرف أحواله ، بعد حديث أمه معها عنه وعن مشاهداتها في أيام حمله وحين ولادته وفِراستها في أنه سيكون لابنها شأن ، ومساءلة حليمة اليهود عنه ، وكتمها يتمـه لتنجو به من غدرتهم التي انتووها ، كل أولئك من الأمور التي لا ينكرها الواقع ولا تأباها سنن الحياة العامة .

ومـن هنا نقول : إن هذه الصـورة لمهد محمد ﷺ ورضاعه صورة فطرية إنسانية مكملة لتلك الصورة الفطرية التي صورت حملـه وميلاده تصويرًا تاريخيًّـا ، وكما كان وراء تلك الصورة صـورة أخرى مصنوعـة لا تعرفها الفطرة الإنسـانية ولا توائم السنن العامة للحياة ، فكذلك وراء صورة مهده ورضاعه صورة لهما مليئة بالأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة ، والفيصل فـي قبول هـذه الخوارق هو ما أصَّلناه مـن النظر الممحص في سندها وصحة رواياتها ، فإذا استقام لها ذلك قبلناها على أنها أثر من آثار القدرة الإلهية القاهرة ، يُكرِم الله بها عبده ورسـوله ﷺ كرامة تشريف .

تحقيق قصة شق صدره ﷺ

شــق الصــدر من الإنســان حســيًّا، وإخــراج قلبــه المحس المعروف في التكوين الجســمي للإنسان بأنه لحمة صنوبرية الشــكل في داخل القفص الصدري، وســطه مائــلًا إلى الجهة اليســرى قليلًا في الأعم الأغلب، وتتصل بــه مفاتيح الحركة الدمويــة ومغاليقها، وقنواتها، ثم فتح هــذا القلب فتحًا ماديًّا حسيًّا، وإخراج علقة دموية منه، وغسله بالماء، ثم إعادته إلى مكانــه بعد خياطته، وخياطة الصــدر، والتئامه مع بقاء الحياة الإنســانية بعد ذلــك كله - كانت أمــورًا تأباهــا قوانين الحياة العامــة، وتنكرها معارف العقول، وتردها أبســط قضايا العلم وبدائه المنطق في تاريخ الحياة.

فإذا وقعت وشــهدتها الحياة الوجودية كانت من غير شك جارية على غير ما عرفته العقول من سنن الحياة، وعلى غير ما عرفــه العلم التجريبي في قوانين الحياة، بل تكون جارية على ســنن خاصة خارقة لمتعارف العقول، متخطية قضايا العلم في تجاربه الحسية.

وهذه الســنن الخاصة لا ينكرهــا العقل؛ لأنه دائب البحث في أسرار الكون وسنن الله فيه، ولا يزال يكشف عن كثير من هذه الأسرار والسنن مما كان يجهله، ولم يقف هذا العقل عند هذه القضايا العلمية المعروفة له باعتبارها نهايات لمدركاته، ولــم يؤمــن بأنها هــي الغايــة لجولاته فــي الكــون المحجب

بسحائب الغيب، بل هو مؤمن أشد الإيمان أن وراء ما وصل إليه من حقائق - أمورًا كثيرة لم تكشف له، وهو دائب العمل في سبيل إدراك المجهول من حقائق الكون وسنن الله المنظمة لوجود هذا الكون العظيم.

والراسخون من علماء الكونيات يرون أن ما وصلوا إليه في الكشف عن بعض أسرار الحياة إنما هو قطرة من محيط العجائب الكونية والسنن الإلهية، ولم يدَّعِ أحد منهم أن العقل يستطيع أن يصل إلى مجهول الأسرار جميعها في هذا الكون العظيم.

شأن آيات الله المعجزة فوق شأن العلم التجريبي:

وجيلنا اليوم ـ وهو في آخر القرن الرابع عشر الهجري، وآخر القرن العشرين الميلادي(٢٧) - يشهد أعمالًا في طب الجراحة وزرع الأعضاء الداخلية والخارجية في جسم الإنسان وسائر الحيوان، كانت في الماضي من المحالات في نظر العقل والعلم، ولا نذكر هذا لنفسِّر به المعجزات الإلهية التي يجريها الله تعالى على مقتضى سننه الخاصة تكريمًا لأنبيائه ورسله؛ لأن شأن هذه المعجزات أن تجري على مقتضى سنن إلهية خاصة تختلف في أسلوبها وحقائقها مع أسلوب وحقائق السنن الإلهية العامة، وكلها من عند الله.

(٢٧) وقت تأليف الكتاب (المجلة).

ومن ثَمَّ كان وقوع هذا الحدث الخطير لمحمد ﷺ من أعجب الأعاجيب الكونية، وأعظم خوارق السنن العامة، وأضخم الآيات الحسية التي تحيلها عادات الناس ومألوفاتهم، وتستبعدها العقول بالنظر لمعارفها من سنن الحياة العامة المتكررة، وبالنظر إلى قضايا العلم التجريبي.

ومجرد إحالة العادة المألوفة للناس في مجرى حياتهم العامة، ومجرد استبعاد العقول المقيدة بأغلال الحس والحواس، وسنن الحياة العامة المكررة لا يكفي كل ذلك للحكم بعدم الوقوع، وتبقى المسألة في دائرة الإمكان، مستندة إلى سلطان القدرة الإلهية والإرادة الربانية التي لا تتقيد بسنن الحياة العامة، ومعروف العقول، وقضايا العلم؛ لأن الله تعالى الذي خلق هذه السنن العامة لنظام الحياة، وأوصل العقول إلى معارفها، وهداها إلى قضايا العلم، هو الذي يخلق سننًا خاصة لأحداث خاصة يجريها في أوقاتها ومناسباتها.

فليس من العدل العلمي، ولا من الإنصاف العقلي تحكيم متعارف العقول، وقضايا العلم، ومألوف الناس في عاداتهم وتجاربهم في سنن الله، وتقييدها بما عرف من قضايا تجريبية أو معارف عقلية.

تحكيم العقل تحكيمًا مطلقًا في إدراك الحقائق يبطل الإيمان بالغيبيات:

ولو حُكِّم متعارف العقول ومألوف العادات في فهم سنن الله تحكيمًا مطلقًا لبطلت أصول الديانات السماوية؛ لأن العادات، ومتعارف العقول، وقوانين المنطق الإنساني لا تدرك حقيقة النبوة فتحيلها بصورتها الدينية؛ لأن النبوة قائمة على الوحي، وهو معنى لم تحدد حقيقته بغير الاتصال البشري بالملأ الأعلى الذي هو غيب مطلق في حقيقته، وطريق الاتصال به من قبل البشر، واتصاله بالبشر، وكل ما يعرفه العلم الديني عن الوحي أن يتم باتصال فرد من البشرٍ يصطفيه الله لنبوته، بروح علوي، تسميه الشرائع السماوية مَلَكًا، وهو أمر يجهل العقل الإنساني حقيقته، وفي هذا الاتصال تتلقى الشخصية البشرية عن هذا الروح العلوي أمورًا من قبل الله تعالى، هي شرائعه التي يتعبد بها خلقه، وينظم بها حياتهم ليقوم الناس بالقسط.

وهنا يتساءل العقل الإنساني: كيف يتصل فرد من البشر بما فيه من خصائص البشرية بملك بما له من خصائص الملكوتية؟ وكيف يتلقَّى عنه ما يبلغه عن الله تعالى؟

ثم يتساءل العقل مرة أخرى: كيف يتلقى المَلَك عن الله عز وجل ما يؤديه إلى آحاد البشر؟

ولا ريب أن العقل سيقف أمام هذا التساؤل في جانبيه

حائـرًا، لا يحير جوابًـا يطمئن إليه في حـدود معارفه وقضايا علمه وأقيسـة منطقه، ولا يخرجه من هذه الحيرة إلا التسليم والإقـرار بأنه ليس مـن حقه أن يرفض جميع مـا لم يعلم، ولا جميع ما لم يفهم؛ لأنه أمام نفسه يعلم أنه لم يُحِطْ خبرًا بكل مـا يمكن أن يعلم، وأن ما يجهله من سـنن الكون أكثر بكثير مما علمه.

وإذا انتهى العقل إلى هذا الموقف وجب عليه أن يسلم بقوة القدرة الإلهية على الخلق والإبداع، واتساع سنن الله تعالى في الكون بما يستطيع أن يصل إليه من البراهين القاطعة على قهر القـدرة الإلهية لقوانين الطبيعة، وما وصـل إليه العلم والعقل مـن سـنن الحياة فـي الكـون، وأن يسـلم بمطلـق تصرفاتها ليسـهل عليه الإيمـان بما صح الإخبار به مـن أحداث لم تجر على مقتضى معروف من العلم، وإنما جرت على مقتضى نمط خاص في سنن الله تعالى.

فالتقيُّد بحكـم العادة المتكررة ومتعارف العقول، وقضايا العلم هادم لجميع أصول الديانات السماوية، فالذين يتشبثون بهـذا التقييـد في فهم حقائـق الأحداث الكونيـة يجعلون من معـارف العقل وقضايـا العلم حواجز أمام فهم سـنن الله تعالى فـي الكون، وهم عندئذ بين أمرين: إمـا إيمان ينتهي بهم إلى التسـليم بالعجز عن إدراك بعض الحقائق الكونية التي جاءت بها الأديان السـماوية بأخبار ثابتة الصحـة عن طريق الرواية،

وإمـا إلحاد ينكـر جاحدًا أصـل الديانات الإلهيـة، فلا يبقى ـ في نظرهم ـ بين الحقائق الوجودية نبوة ولا رسـالة من الله إلى الخلـق، وهذا ما انتهى إليه ملاحدة الماديين من كل من حكَّم الحس وأنزل العقل عن منزلته إلى هاوية الحس المادي.

وجميع المؤمنين بالديانات السماوية ـ عامتهم وخاصتهم ـ يطمئنون إلى أن هذا اللون من العجز هو محض الإيمان الذي يأخـذ بصاحبـه إلى سـاحة رضـا الله تعالى، وهو فـي حقيقته تكريم للعلم والعقل.

في سير الأنبياء خصوصيات لا تخضع للعقل:

ورد مـا يعتاص فهمـه على القول من الأحـداث لعدم جريه علـى مقتضى معـارف العقل وقضايا العلم إلى سـلطان القدرة الإلهيـة في الخلق والإبداع، وإلـى الإيمان بأن الله تعالى يفعل في ملكه ما يشاء كما يشاء هو نهج القرآن الكريم، ففي قصة زكريا عليه السـلام حينما بُشِّـر بأن الله تعالى سيرزقه غلامًا، وكان قد بلغ من الكبر سن اليأس والجفاف الذي لا يكون معه ولادة وإنجاب، وكانـت امرأته عقيمًا لا تلد، فتعجب من أمر نفسه أن يخرج منه ومن زوجه ولد ـ وهما على حالهما التي لا يظهر فيها سبب قريب أو بعيد لإخراج الولد منهما، وعبَّر عن تعجبه بما حكاه الله عنه في قوله:

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا

﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾

(مريم : ٨)

فجذبه الله من دائرة الأسباب والتقيد بالسنن العامة، إلى حظيرة الإطلاق، والسنن الخاصة، فقال له:

﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ (آل عمران: ٤٠)

أي: شأن الله في الإيجاد والإبداع فوق الأسباب ومتعارف العقول والعادات، وكيف تقيده الأسباب والسنن وهو خالقها ومبدعها؟ فقدرته تعالى على إبراز الأحداث من الغيب إلى الوجود العيني لا تتقيد بأسباب جرت بها السنن العامة في نظام الكون؛ لأن وراء هذه الأسباب والسنن العامة أسبابًا وسننًا خاصة يفعل بها ما يشاء كما يشاء متى شاء؛ ولذلك زاد نبيه زكريا تلطفًا في جذبه إلى حظيرة الإطلاق، فنبَّهه إلى ما هو أعظم من إيجاد الولد منه ومن زوجه وهما على حالهما من البعد عن الإنجاب فقال له:

﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾

(مريم : ٩)

وفي قصة مريم عليها السلام حينما بُشِّرتْ بالولد من غير أب عجبت من أمر نفسها أن تأتي بولد، وليس لها زوج يكون منه الولد في مجرى العادة ومتعارف العقول، وعبرت عن عجبها بما حكى الله عنها:

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾

(آل عمران : ٤٧)

فنبهها الله تعالى إلى مطالع جلاله وعظيم قدرته حتى لا تقف مع الأسباب والسنن العامة ومتعارف العقول ومجريات العادة، فقال لها :

﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ (آل عمران : ٤٧)

أي إن شأن الله تعالى ألا تتقيد قدرته في إيجاد ما يشاء بما تعرفه العقول وتعهده العادات من أسباب، وإنما مرد أمره في الخلق والإبداع إلى قضائه، فإذا قضى الأمر كان ما قضاه بكلمته وحكمته

﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (البقرة : ١١٧)

وفي قصة إبراهيم عليه السلام وزوجه أم إسحاق عليه السلام لما بشر بالولد من زوجه العجوز العقيم، وهو شيخ كبير عتا عن الإنجاب، عجبت امرأته من أمرها وأمر زوجها فرحة ضاحكة من شدة سرورها بالبشرى، وقالت معبِّرة عن عجبها لوقوفها آنئذ مع الأسباب والسنن العامة :

﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾

(هود : ٧٢)

فنبهها الملائكة المبشِّرون إلى أن هذا الإنعام من أمر الله الذى لا يتقيد بظواهر الأسباب ولا ينبغي التعجب من أمر الله ؛

لأن أمره جل شــأنه فوق الأسـباب والسـنن العامـة، ومتعارف العقـول، ومجاري العادات في الكون؛ لأن الله تعالى يفعل من الأسباب والمسببات ما يريد.

للعقل دور لا يتعداه:

فعلـى الذين يؤلِّهون العقل، ويتعبدون لمعارفه، ويَجْمُدون مـع متكـرر العـادات أن يكفكفـوا مـن غلوائهم في تفسـير الأحداث الكونية في الإنسان وفي غيره من سائر الموجودات، فما اتضح لهم تفسيره واطمأنوا إليه قبلوه ـ بحمد الله ـ، وإن لم يتضح لهم تفسـير بعض الأحداث لاذوا بالتواضع العلمي، ووضعوا نصب أعينهم هـذا القانون الإلهي المعبِّر عن أصدق ما وصل إليه العقل والعلم، وما يمكن أن يصلا إليه

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

(الإسراء: ٨٥).

وهــم يعلمــون أن العقل والعلم عجزا عن تفسـير كثير من الحقائق الكونية، وهما دائبان على البحث وراءها، عسـاهما يصلان إلى شيءٍ مما عجزا عنه.

وحسْـبُ الباحثيـن أن يقفـوا مـع العقـل والعلم فـي أوج توثباتهمـا الفكرية والتجريبية ليعلموا ـ إن كان هناك وسـيلة للعلـم ـ ما شـأن الحيـاة بأعـم معانيها في الكـون؟ وماذا بلغ العقـل والعلم من الكشـف عن حقيقتها ما هـي؟ وما كنهها، والحياة بها كل شـيء في الوجود، أو هي كل شـيء، فإذا كان

العقل والعلـم لم يصلا إلى معرفة حقيقتهـا في عمومها، ولم يصـلا إلى حقيقتها في الإنسـان خاصة، فكيـف يُعطَى العقل والعلم حق التحكم في تفسـير الأحداث الدينية التي تسـتند إلى أمور غيبية لا تزال محجبة عنهما؟

إن العلـم والعقـل لهما مكانتهمـا التي لا تُجحَـد، وبهما تتقدم الحياة نحو الكشـف عن المجهول، وعلى المعتصمين بالعلم والعقل أن يسـيروا معهما في حدود مبلغ أمرهما، دون أن يتجاوزوا بهما طبيعتهما في تفسير الأحداث.

ونكـرر ما قدمنا أن الفيصل في قبول مـا يُروى من أحداث كونيـة، وأعاجيـب دينيـة خارقـة لنواميس السـنن العامة في الكون مما جرى على أيدي أنبياء الله ورسـله هو صحة الرواية صحة لا تتعرض لطعن في النقل أو تجريح في السـند، ثم بعد ذلك وجوب التسـليم بما صح الإخبـار به، وردّ إبداعه إلى الله تعالى، وعظيم قدرته، وبالغ حكمته.

وقصة شـق صدر محمد ﷺ سـبيلها سـبيل هذه الأحداث الكونيـة الدينية، فما شـأن الروايات التـي تحدثت بها؟ وما مكانها من الاعتبار عند أهل النقد والتمحيص؟

روايات شق الصدر:

تـروى هذه القصة فـي كتب السـير والمغـازي، ودواوين الحديث والسـنة، وكتب التاريخ والطبقات بروايات مختلفة في زمانها ومكانها، وطريقة وقوعها، والحالة التي وقعت بها.

ويشبه أن تكون كتب السير متفقة على رواية محمد بن إسحاق عن ظئر رسول الله ﷺ حليمة السعدية التي سقنا طرفًا منها عند الحديث عن رضاعه ﷺ، وفيها تتابع حليمة الحديث فتقول ـ كما في رواية الطبري وابن هشام، وابن الأثير، وابن كثير ـ: فرجعنا به فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه في بَهْـم لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتد فقال لي ولأبيه: ذاك أخيٍ القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثياب بِياض فأضجعاه وشقَّا بطنه وهما يسوطانه، فخرجت أنا وأبوه نشتد فوجدناه قائمًا منتقعًا وجهه، فالتزمته والتزمه أبوه، وقلنا له: ما لك يا بني؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثيابٌ بِياض، فأضجعاني فشقا بطني فالتمسا فيه شيئًا لا أدري ما هو.. قالت حليمة: فرجعنا إلى خبائنا وقال لي أبوه: والله يا حليمة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقيه بأهله قبل أن يظهر به ذلك: فاحتملناه فقدمنا به على أمه، فقالت: ما أقدمك به يا ظئر وقد كنتِ حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟ فقلت: قد بلغ الله بابني، وقضيت الذي علَيَّ، وتخوفت الأحداث عليه فأديته إليك، كما تحبين، قالت: ما هذا بشأنك فاصدقيني خبرك!! قالت حليمة: فلم تدعني حتى أخبرتها الخبر، قالت: قد تخوفتِ عليه الشيطان؟ فقلت: نعم، قالت: «كلا والله ما للشيطان عليه سبيل، وإن لبُنَيَّ لشأنًا».

هذه الرواية ساقها بنصها الإمام ابن كثير في تاريخه، وهو

مؤرخ ناقد ممحص وقد عقب عليها ـ كما قدمنا ـ بقوله: «وهذا الحديث قد روي من طرق أُخَر، وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازي»، وليس هذا التعقيب تصحيحًا فنيًا، فالشهرة والتداول بين أهل السير والمغازي ليست عنوانًا على صحة الحديث فنيًا، وكتب السيرة والمغازي لم تُوصَف عند أهل الشأن بالصحة، وربما كان أمرها عندهم أخف في درجات القبول لما فيها من الجمع بين الغث والسمين، والصحيح والسقيم، والقوي والضعيف، وطريق تمييز هذا من ذاك هو الرجوع إلى كتب الحديث المعتبرة وأقاويل رجال النقد في رواة الحديث وسنده، وقبل ذلك لا يصح الحكم على ما فيها والأخذ به أو رفضه ورده.

وهذا هو محمد بن إسحاق صاحب هذه الرواية المشهورة المتداولة يروي من طريق آخر كما تنقله عنه المصادر المتقدمة نفسها فيقول: حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا له: أخبرنا عن نفسك، قال: «نعم أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى عليهما السلام، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا في بَهْم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض معهما طَسْتٌ من ذهب مملوء ثلجًا، فأضجعاني فشقَّا بطني ثم استخرجا قلبي فشقاه فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج،

حتى إذا أنقياه رداه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته فوزنني بعشرة فوزنتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته فوزنني بمائة فوزنتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته فوزنني بألف فوزنتهم، فقال: دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنهم. قال ابن كثير معقبًا على هذه الرواية: «وهذا إسناد جيد قوي».

وإذا كان هذا إسنادًا جيدًا قويًّا فالرواية به رواية جيدة قوية، وهي لا تختلف عن الرواية المشهورة المتداولة في أصل وقوع قصة شق الصدر بصورة معجزة خارقة لجميع ما عرف الناس من سنن الحياة العامة، فهي عاضدة للرواية المشهورة، وتزيد هذه الرواية أنها حديث مرفوع يحدث به النبي ﷺ عن نفسه.

ومن مجموعهما نرى أن شق الصدر الشريف كان حادثًا واقعيًّا شهده الوجود بصورته المعجزة في بادية بني سعد، وأنه كان في أول أدوار طفولية محمد ﷺ وهو عند ظئره، والرواية المشهورة أوضح في ذلك؛ لأنها صرحت أنه ﷺ ذهبت به ظئره لزيارة أمه بعد اكتمال رضاعه في سنتين وأنها استردته معها فرُدَّ، وبعد رده بأشهر وقع حادث شق الصدر، فهو على اليقين بالنظر لهذه الرواية، كان في أوائل العام الثالث من عمره ﷺ، وقد ذكر القسطلاني في المواهب أن القصة وقعت بعد مقدم ظئره به راجعة من عند أمه بشهر أو ثلاثة.

وما في الروايتين من اختلاف وراء ذلك فهو اختلاف الإجمال والتفصيل وليس بضار شيئًا في جوهر الموضوع.

وقد جاءت قصة الشق في رواية مطولة جدًّا من حديث شدَّاد ابن أوس رواها أبو نُعيم في الدلائل ورواها الطبري في التاريخ والقسطلاني في المواهب وجمع غيرهم، وقد نقد هذه الرواية ابن كثير من جهة سندها فقال: وقد روى أبو نعيم الحافظ في الدلائل من طريق عمر بن الصبح هذه القصة مطولة جدًّا، ولكن عمر بن صبح هذا متروك كذاب متهم بالوضع فلهذا لم نذكر لفظ الحديث إذ لا يفرح به، فهذا نقد فني يدل على أن ما ثبت بغير هذا السند صحيح الوقوع.

وقد جاءت القصة أيضًا في حديث رواه أبو نعيم والإمام أحمد وصححه الحاكم عن عتبة بن عبد الله أن رجلًا سأل النبي ﷺ فقال: كيف كان أول شأنك يا رسول الله؟ قال: «كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر، فانطلقت أنا وابن لها في بَهْمٍ لنا ولم نأخذ معنا زادًا، فقلت: يا أخي اذهب فائتنا بزاد من عند أمنا، فانطلق أخي ومكثت عند البهم، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، فأقبلا يبتدراني فأخذاني فبطحاني للقفا فشقا بطني، ثم استخرجا قلبي فشقاه فأخرجا منه علقتين سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه: ائتني بماء ثلج فغسلا به جوفي ثم قال: ائتني بماء برد فغسلا به قلبي، ثم قال: ائتني بالسكينة فذراها في قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: خِطْهُ،

فخاطـه وختم على قلبي بخاتم النبوة، فقال أحدهما لصاحبه: اجعلـه في كفة واجعل ألفًا من أمته فـي كفة، فإذا أنا أنظر إلى الألـف فوقي أشـفق أن يخرَّ علـيَّ بعضُهم، فقال: لـو أن أمته وُزِنَتْ به لمال بهم، ثم انطلقا فتركاني وفَرِقْتُ فَرقًا شـديدًا، ثم انطلقتُ إلى أمي فأخبرتها بالذي لقيت، فأشفقت أن يكون قد لبّس بي فقالت: أعيـذك بالله، فرحلتْ بعيرًا لها وحملتني علـى الرحل وركبت خلفي حتى بلغنا إلى أمي، فقالت: أديت أمانتي وذمتي، وحدثَتْها بالذي لقيتُ فلم يرعها، وقالت: إني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام».

وهـذه الروايـة تتفق مـع الروايتين السـابقتين فـي جوهر الواقعة، وهو أنه ﷺ شق بطنه وأخرج منه قلبه فشق وغسل ثم أعيـد، وخِيط عليه وخُتم بخاتم النبوة وذلك في أول طفوليته وهو عند ظئره في بادية بني سعد بن بكر.

وتختلـف معهما فيما حكته من أنه ﷺ هو الذي ذهب إلى ظئـره وقد فَرِقَ مما وقع له فرقًا شـديدًا حتى خشـي أن يكون قد لبس عليه، فسـكنت ظئره روعه، وأعاذته بالله مما أشـفق على نفسـه منه، وأما الروايتان السابقتان فلم تعرض إحداهما لهذا ولعله من باب الاختصار، وعرضت له الرواية المشـهورة فذكـرت أن الـذي ذهب فأخبـر أمه هو أخوه مـن الرضاع وأن ظئره هي التي خافت عليه وردته إلى أمه بمكة.

أصح الروايات في قصة شق الصدر:

قال ابن كثير: «وثبت في صحيح مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان.. فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب واستخرج منه علقة سوداء فقال: هذا حظ الشيطان، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لَأَمَه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ يعني ظئره ـ فقالوا: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون.

قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره».

هذه رواية ارتفعت عن جميع ما سبقها من جهة علو السند وصحته وقوته، فحسبك بمصدرها أحد الصحيحين، وحسبك برواتها أنهم ممن اتفق على توثيقهم والرواية عنهم الشيخان البخاري ومسلم، فلا سبيل إلى التشكيك في وقوع القصة بعدها، وهي واضحة في أن القصة وقعت والنبي ﷺ في طفوليته يلعب مع الغلمان عند ظئره في بادية بني سعد.

وروى عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائده على مسند أبيه عن أبي هريرة قال: يا رسول الله، ما أول ما ابتدئت به من أمر النبوة؟ قال: «إني لفي صحراء أمشي ابن عشر حجج إذ أنا برجلين فوق رأسي يقول أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، فأخذاني فألصقاني لحلاوة القفا، ثم شقا بطني، وكان أحدهما يختلف بالماء في طست من ذهب والآخر يغسل جوفي، فقال

أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فإذا صدري فيما أرى مفلوق، لا أجد له وجعًا، ثم قال: اشقق قلبه، فشق قلبي، فقال: أخرج الغِلَّ والحسد منه، فأخرجا شبه العلقة فنبذ به، ثم قال: أدخل الرَأفة والرحمة قلبه، فأدخل شيئًا كهيئة الفضَّة، ثم أخرج ذرورًا كان معه فذَرَّ عليه، ثم نقر إبهامي، ثم قال: اغد، فرجعت بما لم أغد به من رحمتي للصغير ورقتي على الكبير».

وفي هذه الرواية مخالفة جوهرية في الزمن والسن التي كان عليها محمد ﷺ وقت وقوع القصة، فهي صريحة في أنها وقعت وسنه عشر سنوات، ولم يقل أحد إنه كان وهو في هذه السن لا يزال في بادية بني سعد، فالصحراء المذكورة هنا هي غير صحراء السعديين الذين كان مسترضعًا فيهم، فالمخالفة بين هذه الرواية والروايات السابقة في الزمان والمكان، ومن ثم جَزَمَ بعض العلماء بتعدد القصة، ولا نميل إلى مثل هذا.

ومن الروايات المحدِّدة لسنه ﷺ وقت وقوع القصة رواية الواقدي عن أصحابه كما يرويها تلميذه محمد بن سعد في الطبقات قال: مكث عندهم - بني سعد - سنتين حتى فطم وكأنه ابن أربع سنين، فقدموا به على أمه زائرين لها وأخبرتها حليمة خبره وما رأوا من بركته، فقالت آمنة: ارجعي بابني فإني أخاف عليه وباء مكة، فوالله ليكونن له شأن، فرجعت به، ولما بلغ أربع سنين كان يغدو مع أخيه وأخته في البهم قريبًا من الحي، فأتاه الملكان هناك فشقا بطنه واستخرجا

علقة سوداء فطرحاها وغسلا بطنه بماء الثلج في طست من ذهب، ثم وزن بألف من أمته فوزنهم، فقال أحدهما للآخر: دعه فلو وُزن بأمته كلها لوزنهم، وجاء أخوه يصيح بأمه: أدركي أخي القرشي، فخرجت أمه تعدو ومعها أبوه فيجد أن رسول الله ﷺ منتقع اللون، فنزلت به إلى آمنة بنت وهب وأخبرتها خبره، وقالت: إنا لا نرده إلا على جدع أنفنا، ثم رجعت به أيضًا فكان عندها سنة أو نحوها لا تدعه يذهب مكانًا بعيدًا.

فهذه الرواية تخالف سابقاتها في تعيين سن محمد ﷺ وقت حدوث شق الصدر بأربع سنوات، وتجعله متصلًا بقصة رضاعه في بني سعد وتجعل باديتهم مكانًا للقصة، فهي موافقة للرواية المشهورة المتداولة فيما عدا تعيين السن، فالرواية المشهورة حددته بسنتين وأشهر، ورواية زوائد المسند حددته بعشر سنين، وهذه بأربع سنوات.

وقد وقف العلماء عند هذا الاختلاف بعد اطمئنانهم إلى سلامة السند في الروايات التي سقناها أن يدخله طعن ينزل بواحدة منها إلى الوضع والكذب، ولكنها تنتهي إلى درجة من الصحة والحسن متفاوتة القوة، فرجَّح فريق منهم بعض الروايات على بعض وجزم بأن القصة وقعت مرة واحدة في طفولية محمد ﷺ، وإلى ذلك جنح القاضي عياض، وهو إمام ضليع الإمامة في الحديث والسيرة ومعرفة الأسانيد، وعارضه

الإمام السهيلي مرتضيًا أن القصة وقعت مرتين، قال ابن حجر في الفتح: وهو الصواب، ولعل مرد ذلك ما في الروايات من اختلاف جوهري في زمن القصة ومكانها مع عدم ضعف السند ضعفًا يقتضي إهداره وطرحه، وإلى تعدد القصة أكثر من مرة مال القسطلاني في المواهب فقال: وهذا الشق روي أنه وقع له عليه الصلاة والسلام مرات في حال طفوليته إرهاصًا، وتقدم المعجزة على زمان البعثة جائز للإرهاص.

هذه الروايات والنقول والأقاويل كلها تدور على أساس أن شق الصدر وقع له ﷺ قبل بعثته بالرسالة، وأن ذلك كان في طفوليته فيما بين السنة الثالثة إلى السنة العاشرة من عمره المبارك، وأصحُّ ما في ذلك وأولاه بالقبول رواية صحيح مسلم، وهي على إجمالها واضحة في إثبات القصة ثبوتًا لا يعتريه ريب ولا لبس، وواضحة، في أن ذلك كان إرهاصًا معجزًا ولا يكون كذلك إلا إذا كان في حال اليقظة على الطريقة التي لا تبقى معها حياة في العادة ومتعارف الناس.

رواية تشعر بأن الأمر كان رؤيا منامية:

غير أن بعض الروايات جاءت فيها ألفاظ ربما كانت مشعرة بأن الأمر في القصة لم يخرج عن كونه رؤيا منام رآها رسول الله ﷺ، فقد جاء في رواية ابن عساكر من حديث عروة بن الزبير عن أبي ذر الغفاري قال: قلت: يا رسول الله، كيف علمت أنك نبي حين علمت ذلك واستيقنت أنك نبي؟ قال: «يا أبا

ذر أتاني ملكان وأنا ببعض بطحاء مكة»، وساق الحديث حتى ذكر شق الصدر وخياطته وجعل الخاتم بين كتفيه، إلى أن قال النبي ﷺ: «فما هو إلا أن ولَّيا عني فكأنما أعاين الأمر معاينة»، فهذا ظاهر في أن الأمر لم يكن معاينة محققة، ولكنه كان شبيهًا بالمعاينة من جهة، وفيه جميع ما جرى له، وعدم ذهاب شيء عن وعيه منه، وفي هذه الرواية تعيين لمكان القصة وأنها كانت ببعض بطحاء مكة؛ ولذلك ذهب بعض العلماء إلى أن هذه قصة أخرى غير قصة بادية بني سعد التي اتفق عليها الرواة، ولعل هذه كانت في مبدأ النبوة، وكان أول ما بدئ به ﷺ الرؤيا الصادقة، فتكون من هذا القبيل، وليس لهذه الكلمة الواردة في هذه الرواية قوة رد جميع الروايات المتقدمة بما فيها رواية صحيح مسلم، وكلها صريحة في أن القصة وقعت وقوعًا ماديًّا في اليقظة من قبيل الإرهاص والإعجاز على أن مكان العناية في الأمر أن شق الصدر معجزة من معجزات محمد ﷺ التي لم يقصد بها إلى التحدي ولم تُجعَل برهانًا على إثبات الرسالة، وأن النبي ﷺ لم يخبرها إلا جوابًا لسائل، وهذا القدر ثابت في روايات توشك لكثرتها أن تجعل الحادثة متواترة الحديث تواترًا معنويًّا.

ومما يجزم الشك ويرفع الاشتباه ويزيل الالتباس ما رواه البخاري في حديث الإسراء عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فُرج عن سقف بيتي وأنا

بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا، فأفرغه في صدري ثم أطبقه»، وهذا يطابق في المعنى حديث أبي ذر المتقدم.

وقد تكلم العلماء فأوسعوا في شرح ألفاظ القصة، وذكروا حكمتها وحكمة كل فعل روي فيها من الغسل بماء زمزم أو غيره، ونزع العلقة وذر السكينة وإدخال الإيمان والحكمة والرأفة والرحمة بما لا يدع مجالاً لمؤمن في التوقف عن قبول القصة والإيمان بها، ولا عبرة بعدم اطمئنان المستشرقين وجماعة (العقلانيين) من الباحثين المعاصرين إلى القصة ووقوعها، فلو لم يكن في رواياتها إلا رواية الشيخين البخاري ومسلم لكانت في أعلى مراتب الصحة من ناحية السند، وأما غمز القصة بطفولية النبي ﷺ واستعظام ما حدَّث به على سنه في الرواية، فهذا من قبيل الإيهام المضلل؛ لأن تحديد السن لم تتفق عليه الروايات، على أننا نسأل عبيد الاستشراق والمستشرقين: ماقولكم في رواية البخاري وهى صريحة في أن القصة وقعت بعد النبوة ليلة الإسراء؟ والحديث معكم في وقوع القصة لا في زمانها ومكانها؛ لأن ذلك تحقيق تاريخي لا يضير البحث ألا تؤمنوا به، وكيف يستعظم تحدثه ﷺ على سنه، والأمر كله من قبيل الإعجاز؟ على أن تحدثه كان وهو نبي رسول، إذ سئل من بعض أصحابه فأجاب بما جاء في الرواية.

تعقيب ختامي على شق الصدر:

والـذى يعنـي البحـث أن قصة شـق الصدر حـادث كوني ومعجزة عجيبة وقعت لنبينا محمد ﷺ وجاءتنا بها الروايات الصحيحة الثابتة، ولا يردها تشكيك مستشرق ولا مستغرب ولا (متعوقـل) ولا متعالـم، ولـم يتخـذ منهـا النبـي ﷺ آية للتحـدي والبرهنة على صدق رسـالته كغيرها من المعجزات الكونيـة والخوارق العجيبة قبل البعثـة أو بعدها، ونحن نعلم أن هـذا اللـون من الآيات المعجزة لو لم يذكر في سـيرة نبينا محمـد ﷺ لم يُنْقِص من جلالها شـيئًا، وأن معجزته العظمى الخالـدة التـي حملت بيـن طواياهـا التحدي بها هـي القرآن العظيـم، ولكن حقائق التاريخ يجب أن يرتفع بها البحث إلى قدس الحق بعيدًا عن التعصب الحقود والتقليد الأبله، والتأثر بالنزعـات المجافيـة لطبيعة الدين والإيمان بـه، وعلى الذين يؤرخـون لمحمد ﷺ ويكتبـون في سـيرته أن يجعلوا نصب أعينهم أن محمدًا ﷺ نبي من أنبياء الله ورسـول من رسل الله، وأن عظمتـه في نبوته ورسـالته لا في عبقريتـه وبطولته، فهو بالنبوة والرسـالة قد سما على العبقرية والبطولة، وإنما فضله على إخوانه الأنبياء والمرسـلين بما منحه الله تعالى من فضل في شـريعته التي ختم الله الشرائع بها، وجعلها جامعة لجميع ما جاءت به الشـرائع المتقدمـة من خير وإصلاح وتهذيب مع زيادة ما يقتضيه تقدم الإنسـانية في تفكيرها وعقلها وروحها

وضميرها ولعل هذا هو ما أشار إليه القرآن الكريم بعد أن ذكر أولي العزم من الرسل في آية

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾

(الأنعام :٨٣)

فقال تعالى :

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾

(الأنعام: ٩٠)

فهُدى الجميع هُدًى لمحمد ﷺ، فهو الجامع لما تفرق في جميع الأنبياء والمرسلين من الفضائل والمحامد، وإليه ينتهي خيرهم، وفي شريعته تنطوي شرائعهم، فهي خاتمة الشرائع وهو خاتم النبيين وإمام المرسلين.

محمد ﷺ في طفولته

لعل التصور المقارب للواقع التاريخي يستطيع أن يسعف القلم ليرسم صورة موجزة مقاربة لمطلع حياة طفولة نهدت في لفائف اليتم لأكرم من ضمه مهد في حياة البشرية، حتى يستشف البحث من وراء ذلك حقائق الوجود الواقعي في مشهد الحياة لهذه الشخصية الكريمة التي غيَّرت معالم الحياة في تاريخ البشرية.

تولى الله أمر محمد ﷺ منذ أول لحظة حظي فيها الوجود بإشراق طلعته، فنشأه تنشئة جمع له فيها خصائص الفطرة الإنسانية في أعلى مراتبها وأرفع درجاتها، فلم يكله إلى أب يكفله ويربيه، وللأبوة أثرها على الطفولة وتوجيهها في الحياة، ومن ثم كان فقد محمد ﷺ أباه قبل أن يتنسم نسيم الوجود في هذه الدنيا العريضة نعمة من أجلِّ نعم الله، فهو لم يشهد أباه ولم يعرف عنه وعن شمائله وأخلاقه وعاداته ووسائله في عيشه إلا ما حدثته به أمه عنه في طفوليته وهي كسيرة القلب حزينة الفؤاد لفراق ذلك الزوج الحبيب والأب الكريم، ومحمد ﷺ يوم أن عقل هذا الحديث وتصور منه صورة أبيه كان قد أخذ سمتًا في الحياة لا تغيره الأحاديث، ولا تؤثر فيه الصور الذهنية المركبة من مجموعة قصص عمن كان وما كان، إلا كما يؤثر بريق التاريخ اللامع في توجيه أمة تكنفها عناصر الحياة بدوافعها الحية المتدفقة، وأي أثر لهذا

البريق غير الإعجاب بالماضي الذي ذهب ولن يعود ؟

ولد محمد ﷺ يتيمًا ، ولم يستشعر عطف الأبوة يفيض به قلب والد فطره الله ـ كغيره من الوالدين ـ على لون من الحنان لم يعطه الله غير قلوب الوالدين ، وللطفولة إلهام تقرأ آياته في نظراتها الحالمة ، وبسماتها الساهمة ، وفي هذا الإلهام ضرب من الإدراك الخافت الذي يلمس به الطفل حنان الأبوة وعطفها ، فترسم على فمه بسمة صادقة وعلى عينيه نظرة صافية صفاء الفطرة الخالية من الرسوم والأصداء ، ولقد ارتسمت على فم محمد ﷺ تلك البسمة الصادقة ، وطافت بعينيه تلك النظرة الصافية ، ونظرت إليه أمه آمنة بنت وهب ـ وكانت قريبة عهد بفراق زوجها الحبيب ـ فجدد نظرها إليه في نفسها حزنًا مبرحًا وألمًا كظيمًا ، فرأت على ثغره ابتسامة متوهجة وفي عينيه تطلُّع إلى السماء ، ولعل خيالها المصور أسعفها فأراها في وجه وليدها المحبوب وجه والده الحبيب ، وتنازعتها عاطفتان : عاطفة الوالدة وقد أشرق عليها وجه وليدها وقرة عينها ، وعاطفة الزوجة [التي] فقدت زوجها الحبيب ، ولكنها تتمثله وترى وجهه في وجه هذا الوليد الحبيب ، وتغلبت عاطفة الأمومة الحانية على عاطفة الزوجية الودود ، وضمت آمنة وليدها إلى صدرها ، واختلطت عليها الأحاسيس واستنار وجهها وحن ثديها ، فأرضعت ابنها ، فكان لبنها أول غذاء غُذي به ، ونمت عليه خلاياه ، ثم تناولته بين

يديها ثويبة أم مسروح جارية عمه أبي لهب فألقمته ثديها فرضع منه ما شاء من ري وشبع، وظل بين أمه وظئره الأولى مدة لم يذكر التاريخ تحديدها حتى أَهَلَّ على مكة موسم المراضع، فقدم السعديات إليها يطلبن الرُّضَّع وفيهن حليمة بنت الحارث فكان محمد ﷺ نصيبها وكانت هي من حظه، وحملته وارتحلت به إلى باديتها، وكان الصدر الذي يضمه ليس صدر آمنة أمه، ولكنه صدر حليمة ظئره، وفرق كبير بين العاطفتين: عاطفة الأمومة الوالدة، وعاطفة الأمومة المرضعة، فحرم حنان أمه بعد أن مضى القدر فحرمه عطف أبيه.

محمد عليه السلام في بني سعد:

ذلك لون من اليتم الجديد، قضت به العادات المتوارثة فيما بين العرب، فهو قد حُرِم عاطفة الأبوة المشفقة، وبُوعد من عاطفة الأمومة الحانية، ونشأ بعيدًا عن بلده وقومه. وبلدُه حاضرة البلاد العربية، لها من طبيعة الحواضر ما يسمها بميسم اللين والدعة، وقومه أهل شرف وسيادة في بلده، وللشرف والسيادة آثارهما على الأخلاق والتطبُّع وتوجيه الغرائز والسلوك. نشأ في بادية بين قوم من العرب عُرفوا بصفاء البيان، وفصاحة اللسان، ضاق عيشهم وعصفتهم السنون، يعيشون في بادية ضاحية الأديم، تصهرها الشمس إذا أسفرت، وتتلألأ في سماء لياليها النجوم الزواهر، ويضيئها القمر المنير، ويزمجر في أرجائها الرعد، ويلمع في آفاقها

البــرق، وتهدر فــي وديانها العواصف وتطبعهــا الحياة بطابع قاس متقلب، تنتشر على صفحتها هنا وهناك خيام يأوي إليها فئام من الناس إذا هجع الليل، أو هجَّر النهار، يسرحون بالبهم يرتادون لها المراعي وظلال الشــجر وأعــداد المياه ومجاري الوديــان ومجتمــع الأنهار والغُدُر، ومســاقط الغيــث ومنابت الــكلأ، وذلك هو كل ما يشــغل أهل هذه البيئة، وفيما ســواه فــراغ لا يملــؤه من العمل كثير ولا قليل، فهــي بيئة تدعو إلى التأمل والتفكر، وتقليب النظر في ملكوت الله تعالى ومظاهر الوجود.

مــاذا وراء هــذا الفضــاء الأفيــح؟ ومــا هــذه القبــة الزرقاء المتعاظمة في سعة آفاقها؟ وما هذه السابحات المتلألئات في أديمهــا؟ وما هذا الجرم الفضي الــذي يبعث على هذه الأرض بأنواره المظللة بنســائم الأســحار؟ وما هــذا اللهب المنبعث مــع خيوط الضيــاء الوهاج من هذا الجرم النهاري الســابح في آفاق الســماء؟ وما الذي يمســك ذلك ويديره على هذا النظام المحكم البديع؟ وما هذا الصوت الهائل المزعج الذي يصحب دائمًا الغيث مبشرًا أو نذيرًا؟ وما هذا الضوء الخاطف بلمعانه في أطراف الســماء؟ وما هذه العواصف المزمجرة؟ وما الذي يهيجها ويحركها؟ وما هذه النباتات والأشــجار في أشــكالها وألوانها وروائحها وطعومها؟ من أين جاءت وكيف نبتت؟ ثم مــا أنا؟ ومن أنا؟ ومن أين جئــت؟ وإلى أين أذهب؟ ثم ما هذه

الحياة؟ وما هذا الوجود؟ ما مبدؤه؟ وما غايته؟ وهل فوقه قوة تدبـره؟ وإرادة قاهرة تحركه؟ وما حقيقـة تلك القوة المدبرة الحكيمة، وأنَّى لنا بمعرفتها وأسلوب حكمتها وتدبيرها؟

كل هذه أسـئلة لا بد أن تمر على خاطـر من يقيم في بيئة مثل البيئـة التي كانت مهدًا لمحمد ﷺ في بادية بني سـعد بن بكر، ولا بـد أن تنفعل لهـا الخواطر التـي تمر بها، وتتأثـر بها الفطر المصقولـة التـي جعل الله لها قابلية الانطباع لمـا يمر عليها، أما النفـوس الصدئـة والفطـر الكثيفة فليـس لها من ذلـك الانفعال شـيء، فكـم من نفوس شـهدت جـلال الصحـراء وجمالها كما شهدها محمد ﷺ في طفوليته، ولكن قليل جدًا هم الذين تأثروا بذلك الجـلال الوجودي والجمال الكونـي، وانفعلت له فطرهم كما تأثر محمد ﷺ وهو طفل لم يجاوز الخامسة من عمره، وحتى هـذا القليل لم يكتـب له طرف مما كتب التاريخ من تسـبيحات الفكـر في محاريب الوجود، بل ضلوا وضـل ذكرهم في متاهات الصحراء، وبقي محمـد ﷺ وحده على ربوة الوجود تجاذبه هذا الجلال ترانيمُ التقديس في صور من التأملات والتفكير.

رجع محمد ﷺ من بادية بني سـعد إلى مكة بعد أن بلغ من عمره سنوات هي سن تبلغ فيها الطفولية أول مراحل الشباب، والشباب حماسة ونشـاط وقوة وتطلع إلى معرفة كل مجهول، وأي شـيء فـي حيـاة الصحراء مجهول؟ أليسـت الحيـاة فيها مكشـوفة عريانة؟ الأرض وما عليها مـن جبال ووديان وحيوان

ونبات، والسماء وما فيها من شموس وأقمار ونجوم وكواكب، والجـو بعواصفه وأمطـاره ورعـوده وبروقه، كلها أمـور مرئية مشـهودة، ولكـن ما مبلغ علم الناس بها، لا شـيء سـوى هذه الظواهـر المكرورة فـي كل وقت وحين، أما مـا وراء ذلك فهو مُحْجَب مغلق، فأي شيء إذن في حياة الصحراء معلوم؟

الحيـرة الفكرية أمام مظاهـر الطبيعة وجلال الكون هي الآية الأولى في سِفْر الوجود:

هـذه الحيرة الفكرية هي الآية الأولى التي قرأها محمد ﷺ في كتـاب الوجود على صفحة الصحـراء، وهي التي رجع بها إلى مكة السـادرة في غي وثنيتها، السـكرى بخمر أصنامها، المحجوبـة عن التفكير في جمال الكون بتجارتها وأسـواقها ومواسـمها وأعيادهـا وعاداتهـا، فنظـرت إليه ونظـر إليها، نظـرت إليه بمنظار وثنيتها فلم تره يمشـي إلى أصنامها لاهيًا كمـا يمشـي أطفالها لاهية عابثـة، بل رأت فيـه طفلاً ينطوي على نفسـه وكأنـه يحمل من هموم الدنيـا وأحزانها ما صرفه عن اللهو واللعب.

وارحمتـاه لهذا الصبي إنه يتيم، يرى لداته من الأطفال يرتمون في أحضان آبائهـم (٢٨) فيضمونهم إلى صدورهم فيملؤه الحزن ألَّا يـرى له أبًـا بين هؤلاء الآبـاء، كذلك فكرت مكة فـي نظرتها إلى

(٢٨) لِدةُ الإنسان مثيله فى السن والجمع لدات ولِدَون (المجلة).

محمد ﷺ في صمته وعزلته عن معابثها وملاهيها، ونظر إليها محمد ﷺ من خلال حيرته الفكرية، فرأى صورًا هزلية، ورأى مسخًا للكرامة الإنسانية، ما هذه الأحجار المنحوتة؟ وما هذا الدوار بها؟ وما هذه القرابين؟ ولمن يُتقَرَّب بها؟ وفيم هذه الدماء المسفوكة؟ والمساكين غرقى؟ والفقراء جوعى لا يصلون إلى شيء ولا يصل إليهم شيء. ولكن ما حيلة محمد ﷺ وهو طفل في هذه الهامات الضخمة واللحى المسترسلة والرقاب الغليظة والأصوات المفزعة والمجد الزائف الموروث والشرف المؤثل؟! فهي التي تطوف بهذه الأحجار، وهي التي تدور وتتقرب، وهي التي تهذل وتمسخ، لو كان يُسمَع له لقال وتكلم، ولعله أن يكون.

حديث أم ثكلى إلى ولدها الحبيب:

وفي حياة محمد ﷺ الخاصة ما يشغله عن صخب مكة ولهوها العابث حول أحجارها وأوثانها، فليذهب إلى أمه ليسكن إلى ضمة صدرها وحنان قلبها، وقد كان يزورها مع ظئره فتخطف له الحديث خطفًا عن أبيه وأسرته وقومه وبلده.

فأنت محمد بن عبد الله الكريم ابن الكريم، أبوك أنضر فتيان مكة وأشبَّها شبابًا، وأعلاها ذكرًا. هو الذي لم تنسَ مكة حادث فخره في قمة ذبحه، فأين هو؟ إنه.. وتخنق آمنة العبرة فلا تستطيع أن تمضي في الحديث، فينظر إليها وليدها الحبيب، فإذا هي سيالة بالعبرات المكتومة، فيرفع إليها وجهه النضير، أنتِ تبكين يا أماه؟ وتضم آمنة ابنها إلى صدرها

ضمة توشك أن تطوي عليه جوانحها، ثم تعود إلى الحديث في طرف آخر منه. وهذا السيد العظيم الذي يلتف حوله الملأ من صناديد قريش يسمعون لقوله، ويبتدرون نظراته هو جدك شيبة الحمد عبد المطلب بن هاشم سيد الحرم وشريف مكة وكبير قريش. وهؤلاء الفتيان البهاليل المساميح حول هذا الشيخ في وقفة الإجلال له إنهم أعمامك وإخوة أبيك. وهؤلاء الصِّيد الأماجد[٢٩] الذين يملئون السمع والبصر يغدون في طرقات مكة ويروحون في عنجهية واستعلاء إنهم قريش قومك وعشيرتك. وهذا البلد الأمين بلدك، فأنت ابن الأكرمين أهل الله وجيران بيته وسكان حرمه، تدين العرب بالطاعة لهم، وتسمع لقولهم وتعنو الجباه لحرمة بلدهم.

وعرف محمد ﷺ أنه يتيم وأن أباه ليس في غيبة لها أوبة، ولكنه مضى إلى حيث لا يعود، ويخرج محمد ﷺ إلى حيث فراش جده في ظل الكعبة، فيلقى أعمامه حافِّين حوله، ولما يخرج إليهم الشيخ العظيم، فيذهب ليجلس على مجلس جده ويأبى أن يجلس حيث أعمامه، فيهمّ أولئك الأعمام بتنحيته، ويلقاهم أبوهم في همِّهم هذا فيأخذ بيد محمد ﷺ ويجلسه معه، ويمسح ظهره بيده ويظهر له رقة وحبًا لم يكونا لأحد من ولده ويقول: دعوا ابني فوالله إن له لشأنًا.

(٢٩) الصِّيد داء يصيب الإبل، فلتوي منه أعناقها، ولذلك قيل للرجل المتكبر إذا لوى عنقه أصيد، والجمع صيد، ثم صار وصفًا لكبار القوم بصورة عامة. (المجلة)

سفر محمد ﷺ إلى يثرب ووفاة أمه وهي عائدة به إلى مكة

وفاة أمه عليه السلام ودفنها بالأبواء:

ويرجع محمد ﷺ بعد مجلسه عند جده إلى أمه فتحدثه وتداعبه، وفيم يطيب الحديث بين آمنة وابنها الحبيب؟ إلا عن ذلك الراحل الأريب، ويتصل الحديث عن عبد الله وتختلس آمنة النظر إلى ابنها وفي عينيها عبرات، ويلمح محمد ﷺ وجه أمه تكسوه مسحة من الحزن الصامت، وتلتقي عيناه بعينيها فتضمه إلى صدرها الحنون وتنسى أحزانها، وتقبل عليه في ابتسامة تعبر عن آمالها وأحلامها، وتخبره عن رحلة أبيه ووفاته والبلد الذي دفن فيه، وصلته بأهل ذلك البلد في شيء من التفصيل، فكأنما حنَّت نفسه إلى زيارة أقاربه في ذلك البلد الذي يحوي جدث أبيه، وكأنما صادف ذلك من نفس أمه رغبةً موافقة ورأت في شبابه - وكان قد بلغ سنه ست سنوات- قوة على احتمال السفر، فتحملت به ومعه حاضنته أم أيمن التي أورثها له أبوه، فأزارته أخوال جده عبد المطلب، وهناك لعب مع لداته، ورآه يهود يثرب فتحدثوا عنه، وسمعتهم حاضنته فتوجست عليه منهم وأبلغت سيدتها فرحلوا عائدين إلى مكة، ولما كانوا على نحو ثلاثة وعشرين ميلًا من يثرب وقد بلغوا قرية (الأبواء) مرضت آمنة أم محمد

ﷺ مرضًا بلَّغها الأجل، ودفنها هناك ابنها الحبيب وحاضنته أم أيمن وعادا على بعيريهما إلى مكة، قال ابن سعد في الطبقات: كان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب، فلما بلغ ست سنين خرجت به إلى أخواله بني عدي بن النجار بالمدينة تزورهم به ومعه أم أيمن تحضنه، وهم على بعيرين، فنزلت به في دار النابغة فأقامت به عندهم شهرًا.

فكان رسول الله ﷺ يذكر أمورًا كانت في مقامه ذلك، لما نظر إلى أَطَم (قصر) بني عدي بن النجار بعد هجرته عرفه وقال: «كنت ألاعب أنيسة جارية من الأنصار على هذا الأطم، وكنت مع غلمان من أخوالي نطيِّر طائرًا كان يقع عليه» ونظر إلى الدار فقال: «هنا نزلت بي أمي» وفي هذه الدار قبر أبي عبد الله بن عبد المطلب، وأحسنت العَوْم في بئر بني عدي بن النجار».

وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إليه، فقالت أم أيمن: فسمعت أحدهما يقول: «هو نبي هذه الأمة، وهذه دار هجرته» فوعيت ذلك كله من كلامه، ثم رجعتْ به أمه إلى مكة، فلما كانوا بالأبواء توفيت آمنة بنت وهب فقبرُها هناك، فرجعت به أم أيمن على البعيرين اللذين قدموا عليهما، وكانت تحضنه مع أمه، ثم بعد أن ماتت. وقال القسطلاني في المواهب: وقد كانت أم أيمن بركة دايته وحاضنته بعد موت أمه، وكان عليه السلام يقول: «أنتِ أمي بعد أمي».

نفثات حب يتنسمها القلم:

لك الله يا سيدي يا رسول الله، خرجتَ في رفقة أمك الحبيبة شوقًا إلى زيارة بلد ضم جسد أبيك الذي لم يشهد إشراق طلعتك ولم تشهد شخصه في حياته، وكان قدر الله تعالى الحكيم رصدًا لوالدتك في طريق عودتها بك إلى بلدك الحرام وجدِّك الشيخ العظيم، فجمع لك ربك يتم الأبوين، ليستخلصك بالتربية، ويصطنعك بالتأديب حتى تكون نشأتك ربانية وتأديبك إلهيًا، فتتم لك النعمة وتعظم من الله عليك المنة، فتستأهل للخلود في آيات متعبدة متلوة آناء الليل وأطراف النهار:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾ (الضحى: ١- ٦)

فإذا اشتاقت نفسك الكريمة إلى توالي إتحاف الله لك بنعمة فلا يجولن بخاطرك، تلهفًا على ألطاف الملكوت أن ربك ودعك، ولا تأس لما يردده الجاحدون، فأنت الحبيب المحبوب، وأنت ربيب إحسان الربوبية منذ أن شرف الوجود بوجود نورك، فكيف يتركك ربك بعد مظهر الاصطفاء الأعظم وأنت فيه واسطة عقد الملكوت وروح الموجود، وما تركك وأنت بعدُ غلام في مكة لم تطالع من سفر الوجود إلا فاتحة الكتاب.

لك الله يا سيدي رسول الله، ألم يجدك ربك يتيمًا فآواك إلى

كنف عزته، وأيُّ يُتْم أبلغ في النفس أثرًا وأعمق في القلب ألمًا من يتم يتلاحق فيه الأبوان قبل أن تشتد لصروف الحياة قناة الوليد؟ وأنت ذلك اليتيم الذي فقد أباه قبل وجوده، وفقد أمه في طلائع طفوليته ونماء عوده، لم تبك لفقد أبيك لأنك لم تكن لفقده شهيدًا، ولكن أمك تموت على مشهد من عينك في بلد أنت فيه غريب، فوارحمتاه لطفوليتك الغضة يهيضها فادح الأرزاء غربة(٣٠)، ويتم يلاحق يتمًا. روى أبو نعيم من طريق الزهري عن أسماء بنت رهم عن أمها قالت: شهدت آمنة أم النبي ﷺ في علتها التي ماتت فيها ومحمد عليه السلام غلام يقع عند رأسها، فنظرتْ إلى وجهه ثم قالت: كل حي ميت، وكل جديد بال، وكل كثير يفنى، وأنا ميتة وذكري باق، وقد تركت خيرًا وولدت طهرًا.

أي أم محمد رسول الله ﷺ، أي سطر في كتاب الوجود أمليته على الكرام الكاتبين فنعّموا لك واستجابوا لقولك مؤمنين؟ وأية آية من سفر الخلود رتَّلْتِها ساعة وداعك الدنيا الفانية وفيها ابنك الحبيب محمد ﷺ نور الوجود ورمز الخلود؟ وأي إلهام ألقى عليك هذه الكلمات في ساعة يعصر فيها الوجد قلب الحبيب، إنكِ قلتِ أنا ميتة وذكري باقٍ، فقال الوجود، أجل يا أم محمد، وقلتِ: وقد تركت خيرًا وولدتُ طهرًا، فقالت السماء: نعم يا أم محمد، وكفاك ذكرًا أنَّكِ أم محمد رسول رب العالمين، وكفاك فخرًا أنكِ أم محمد أطهر المطهَّرين وسيد المرسلين.

(٣٠) هِضتُ العظمَ هيضًا إذا كسرته بعد جبور، وكل وجع على وجع فهو هيض. (المجلة)

محمّد ﷺ في كفالة جده

ودَفَن محمدٌ ﷺ أمه وعاد إلى مكة ومعه حاضنته وأمه بعد أمه السيدة البرة أم أيمن وقلبه ينفطر أسى وحزنًا لفقد أمه التي كان يجد في أحضانها وأحاديثها ومناغاتها غذاء لطفوليته ونشوة لشبابه، وتلقاه جده الشيخ المُلَقّى عبد المطلب فقرأ على صفحات وجهه أبلغ الحزن وأمضى الأسى، فرقَّ له رقة لم يرقها على ولده، وصب به صبابة شديدة، وكان يقرِّبه ويدنيه ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام، وكان لا يأكل طعامًا إلا قال: عليَّ بابني. وكان يحرص عليه أشد الحرص لما كان يسمع من أهل الكتاب والمعتافين في شأنه. روى ابن سعد أن عبد المطلب قال لحاضنته أم أيمن: يا بركة لا تغفلي عن ابني، فإني وجدته مع غلمان قريبًا من السدرة، وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابني هذا نبي هذه الأمة. وقال قوم من بني مدلج لعبد المطلب - وكانوا أهل عيافة وفطنة في معرفة الأثر والشيات الموروثة - احتفظ به - يعنون محمدًا - فإنا لم نَرَ قدمًا أشبه بالقدم التي في المقام منه، فقال عبد المطلب لأبي طالب: اسمع ما يقول هؤلاء. وروى ابن سعد عن كِنْدِير بن سعيد عن أبيه قال: كنت أطوف بالبيت فإذا رجل يقول:

ربِّ رُدَّ إلي راكبي محمدا
رُدَّهُ إليّ واصطنع عندي يدا

فقلت: من هذا؟ قالوا: عبد المطلب بن هاشم، بعث بابن

ابـن له في طلب إبـل له ولـم يبعث به في حاجـة إلا نجح، فما لبثنـا أن جاء فضمه إليه وقـال: لا أبعث بك في حاجة. وروى ابن سعد من طريق خالد بن خداش عن أبي مجلز قال: إن عبد المطلـب، أو أبا طالب - شـك خالد - لما مـات عبد الله عطف على محمد ﷺ، فكان لا يسـافر سـفرًا إلا كان معه فيه، وإنه توجه نحو الشـام فنزل منزله فأتاه فيه راهب، فقال: إن فيكم رجلًا صالحًا، ثم قال: أين أبو هذا الغلام؟ فقال عبد المطلب: هـأنـا ذا وليـه أو قيل: هذا وليه، قـال، احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به إلى الشـام، إن اليهود حسـد، وإني أخشـاهم عليه، قـال عبد المطلب: ما أنت تقـول ذاك ولكن الله يقوله، فرده، قال: اللهم إني أستودعك محمدًا ثم إنه مات.

وذِكرُنـا لهـذه الروايـة هنـا ترجيـح لجعلها خاصـة بعبد المطلب لأنه كان أول كافل لحفيده بعد وفاة أبويه الكريمين، وقد مات عبد المطلب ورسـول الله ﷺ غلام لم يجاوز الثامنة مـن عمره، وعبد المطلب هو الذي شـهر بهذه الفواضل التي ذكرت ردًا على الراهب في قوله: إن فيكم رجلًا صالحًا، وكان أبـو طالب - مع شـرفه في قومه - عائلًا لا تقوم أسـباب عيشـه بمثـل ما كان يقوم به عبد المطلب من المكارم. وأما عمه أبو طالـب فقد عـاش حتى شـرّف الله محمدًا ﷺ برسـالته ورأى مطالع الدعوة وكانت له في حمايتها قدم راسخة.

وفاة عبد المطلب
وأثرها في نفس محمد ﷺ

بقـي محمد ﷺ في كفالة جده عبـد المطلب بعد وفاة أمه يرعـاه الله ويكلؤه بكلاءته ويحفظه بعنايته نحوا من سـنتين ؛ لأن وفـاة أمـه كانـت وهو في السادسـة من عمـره على أرجح الروايـات ، فلما بلغ الثامنة كان جده قـد نَيَّف على المائة في أشـهر الروايات ، وحضـره أجله فأوصى بالنبـي ﷺ إلى عمه أبي طالب يحفظه ويحوطه لأنه كان شـقيق عبد الله أبي رسول الله ﷺ ، وقد سُئل رسول الله ﷺ : أتذكر موت عبد المطلب ؟ قـال : «نعم ، أنـا يومئذ ابن ثماني سـنين» وقالـت حاضنته أم أيمـن : رأيـت رسـول الله ﷺ يومئـذ يبكي خلف سـرير عبد المطلب .

وكيـف لا يبكي محمد عليه السـلام وقد فقـد بفقده جده عبد المطلب سـيد قريش وشريفها وهو في طفوليته التي هي في مسـيس الحاجة إلي اليد الحانيـة والنفس العاطفة والقلب المشفق ، وكان قد لقي في جده كل ذلك وأكثر منه- الشخص الـذي مـلأ فراغ الأبـوة والأمومة من حياة محمـد ﷺ في هذه المرحلـة التـي تتغـذى فيهـا الطفوليـة بالعواطـف الصادقة والوجدانات المفعمة بالحنان والرحمة .

إن حياة عبـد المطلب كانت في هذا الدور من حياة محمد

ﷺ المهـد الدافـئ المظلل بظـلال الأبوة الرحيمـة والأمومة الوالهـة، وقد أنزله من نفسه منـزلاً لم يُنزلْه أحـدًا من ولده، يحوطـه بحبه ويرمقه بعطفه ويقدمه على بنيه، ويلازمه صبابة بـه فلا يفارقه في سـفر أو إقامة، ويكون معـه في نومه ويقظته لينسيه ألم اليُتم ويمسح عنه الأحزان.

إن هـذه الدموع المتحدرة من عينـي محمد ﷺ وهو يودع جده العظيم في سـفره الأبـدي آيات من كتـاب الوفاء ترتلها نفسه القديسة في صمتها الحزين.

محمد ﷺ

في كفالة أبي طالب

أوصى عبد المطلب عند موته إلى ولده أبي طالب أن يكفل محمدًا ابن أخيه الذبيح، فكان أبو طالب عند ظن أبيه به في حدبه عليه، بل كان صورة منه في جميع ما كان يوليه من حب وعطف ورعاية، قال ابن سعد عن طريق شيخه الواقدي عن ابن عباس: وكان أبو طالب لا مال له، وكان يحب محمدًا حبًا شديدًا لا يحبه ولده، وكان لا ينام إلا إلى جنبه، وإذا خرج خرج معه، وصبَّ به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشيء قط، وكان يخصه بالطعام دون بنيه، وإذا أكل عيال أبي طالب جميعًا أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا، فكان أبو طالب إذا أراد أن يغدي عياله قال لهم: كما أنتم حتى يأتي ولدي، فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم فكانوا يُفْضِلون من طعامهم، وإن لم يكن معهم لم يشبعوا، فيقول أبو طالب: إنك لمبارك. وقال ابن سعد عن ابن القبطية: كان أبو طالب توضع له وسادة بالبطحاء مثنية يتكئ عليها، فجاء النبي ﷺ فبسطها ثم استلقى عليها، فجاء أبو طالب فأراد أن يتكئ عليها فسأل عنها فقالوا: أخذها ابن أخيك، فقال: وحل البطحاء إن ابن أخي هذا ليُحِسُّ بنعيم.

وهذا كله شبيه بما كان يصنعه عبد المطلب مع رسول الله

ﷺ بل هو صورة منه، وكان أبو طالب يرى ذلك كله من أبيه، ويـراه يرضى عـن كل ما يصنع محمـد ﷺ ويحب ذلك منه، فجرى أبو طالب في طريق والده الشيخ وهو القدوة العليا بين أشـراف قريش، وقصة وسـادة أبي طالب شـبيهة بقصة فراش عبـد المطلـب في ظـل الكعبة وجلـوس رسـول الله ﷺ عليه تطلبًا لمعالي الأمور وسمو المكانة في الحياة، وكثيرًا ما يُقرأ تاريـخ حياة بعـض الأطفال من أفعالهم الفطريـة التي تبدو في غرائزهم الأولى، وقد رأى عبد المطلب في تسامي حفيده إلى مجلسه المحفوف بالجلال صورة من السمو الذي يكون عليه في مسـتقبله، ورأى أبو طالب نحو هذا فصوره كل منهما بما ألهمه إحساسه وشعوره.

وكان أبو طالب على غرار أسلافه من بني عبد مناف يشتغل بالتجـارة، ويرحل في عيرات قريـش وقوافلها في رحلتها إلى الشـام واليمن، ويظهر أنـه كان قليل الحظ في الربح الكثير، وكان مـع ذلك كثير العيال، فشـغله ذلك عـن القيام بميراث أبيـه في الرفـادة، واكتفى أبنـاء عبد المطلب بالسـقاية التي وليها العباس وهو مِن أحدث إخوته سنًا.

الفهرس